صفحات من تاريخ العرب

تأليف

د. جمال الدين الرمادي

الكتاب: صفحات من تاريخ العرب

الكاتب: د. جمال الدين الرمادي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الرمادي، جمال الدين

صفحات من تاريخ العرب / د. جمال الدين الرمادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٠٠ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

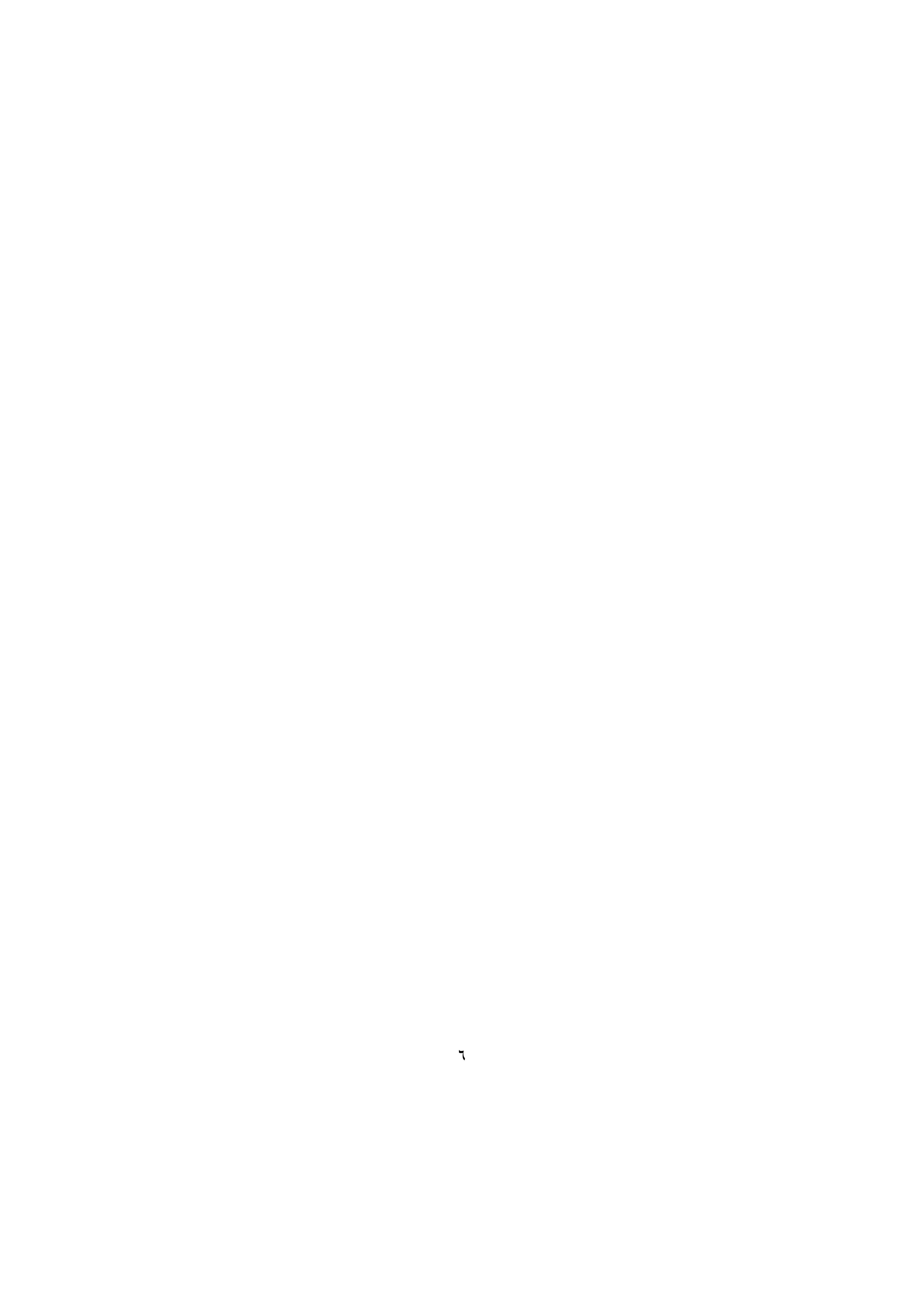
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٠٥٦ / ٢٠٢٠

صفحات من تاريخ العرب





الكتاب الأول



مقدمة

يجتاز المجتمع العربي في العصر الحاضر دورا جديدا له خصائصه ومميزاته، في تاريخ البشرية .. ويعمل ولاة الأمر على حمايته من أدران الماضي وتطهيره من التحكم والاستغلال ويهدف إلى تطبيق الاشتراكية السليمة وهي في معناها على حد تعبير السيد الرئيس جمال عبد الناصر عبارة عن نواح سلبية ونواح ايجابية والسلبية تتمثل في القضاء على آثار الماضي البغيض، والنواحي الايجابية وتتمثل في البناء للمستقبل الذي ينشده كل المواطنين.

فالاشتراكية في المجتمع العربي الجديد في القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال، والقضاء على الاستغلال من الداخل والخارج والاشتراكية في معناها الإيجابي في إقامة اقتصاد وطني ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد، ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه حاجات المجتمع والعمل على إقامة عدالة اجتماعية.

هذا هو نهج مجتمعنا العربي الجديد في جلب المصلحة إليه، ورد المفسدة عنه، وهو في نهضته ووثبته لا يتنكر للماضي ولا يسخر من المجد العربي القديم والحضارة العربية التالدة إنما يستمد منها طاقته وقوته، فالعرب استطاعوا أن يقهروا العالم شرقه وغربه بعقيدتهم السمحة، فاستسلمت لجيوشهم شعوبه ودول، وهوت تحت أقدامهم عروش وأمم،

وذلت لهم ملوك وأكاسرة وأذهلوا العالم بانتصاراتهم وما أتوه من معجزات سطرها لهم التاريخ بأحرف من نور، ورفعوا راية الإسلام خفاقة في العالمين. وتروى قصص البطولة والجهاد والحرص على الموت والاستشهاد في سبيل الله دورهم في هذا السبيل، فمن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها حتى أتي على الإسلام حين من الدهر، فقد المسلمون فيه إيمانهم باله، واختلطت عليهم عقيد تهم، فاعتبروا دينهم عيادات تؤدي وفرائض تقضي ونسوا أن الإسلام صبر وجهاد وأنه ما فرضت سائر العبادات إلا لأعداد المسلم المؤمن لحوم المعارك دفاعا عن دينه ووطنه وحريته وعزته.

والمجتمع العربي الجديد يحاول أن يستفيق من هذا السبات العميق الذي ران عليه منذ أجيال طويلة ويقلب صفحات المجد والبطولة التي تألقي بها تاريخه الحافل، وازدهرت بها أيامه الخوالي ويعلم انه يصارع عدوا واحدا هو الاستعمار ومن أجل القضاء عليه يجب أن ينضوي العالم العربي تحت لواء الاتحاد والجهاد وتؤمن كل أمة بأن بقاءها وعزها مرتبطان ببقاء وعزة المجموع.

وفي الصفحات القادمة ستحاول أن نرسم صورة لحضارة المجتمع العربي في عصور ازدهاره وازدهائه ودور العرب في خدمة الإنسانية والمعارف البشرية حتى نتخذ منهم أسوة حسنة في تطوير مجتمعنا الجديد.

ثم نسرد بعد ذلك قصة التآمر في الوطن العربي لتكون عبرة لمن يعتبر وليؤمن المضللون بأن شمس الحق لا بد طالعة، وسيم نورها الأكوان، وسيغمر سناها شتى الأقطار والأمصار، فإذا صروح الظلام تتهاوى على

الأرض كأنما زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها .

أن الوحدة العربية هي أقصي أمانينا، ومتجمع آمالنا، وهي لا بد واقعة ان عاجلا أو آجلا، فان ما يربطنا من تاريخ مشترك.. وكفاح متصل وجهاد ذقنا مره وغضاضته، وسعدنا بنكهته وحلاوته وأن ما يجمعنا من لغة واحدة، وهدف واحد أقوى من كل محاولة تريد تفرقنا وتهدف إلى تشتيتنا، وترمي إلى بث الضعف في صفوفنا .

لنأخذ من التاريخ عبرة وعظة . ولنؤمن بأن الوحدة هي العروة الوثقى التي يجب أن نسعى إليها ونتمسك بها، ولا نمكن الاستعمار أو أعوان الاستعمار أن ينفثوا سمومهم في كفاحنا .. فالكفاح شجرة مباركة جذورها في الأرض ورأسها في السماء ترويها التضحيات الصادقة، والجهود المخلصة، والعمل علنى إيجاد مجتمع ديموقراطي اشتراكى تعاونى تزال فيه الفوارق بين الطبقات و تمحى فيه تلك الثغرات الواسعة والفجوات الرجعية التي توهن في عضدنا وتوزع جهودنا .

فمهما حاول خصوم القومية العربية بشتى الوسائل أن يوهنوا من كفاح الأمة بصورة أو أخرى فان النصر قريبه وهو آت لا ريب فيه ولا مفر منه ويعز الله بنشره من يشاء .

المؤلف

القاهرة – ١٩٥٩



الفصل الأول

مجتمع إسلام وسلام

أن الباحث في تاريخ الحضارة الإنسانية يجسد آثارا كبيرة الحضارة الإسلام في الغرب، كما يجد كثيرا من الدعوات الغربية في السلام وحقوق الإنسان وحرية الأفراد والشعوب قد جاء بها الإسلام من قبل ولم تكن إلا أصداء لما تضمنه القرآن الكريم من حكم غالية ومواعظ سامية ودستور عظيم في السلوك الإنساني والقواعد الأخلاقية والقوانين الدولية.

فالإسلام دين محبة وسلام وإخاء ووفاء، وهو يحض على السلام بل أنه نفسه مشتق من السلام وقد دعا الله سبحانه وتعالى إلى السلام و كانت ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر هي ليلة السلام فقال تعالى : " سلام هي حتى مطلع الفجر " .

كما دعا بالسلام على الأنبياء والمرسلين فقال في سورة الصافات : وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين، • وقال أيضا : "وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم، وقال كذلك : "وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين" .

كما بشر المؤمنين الصالحين بالجنة التي عرضها السموات والأرض وجعل السلام تحية لهم وتعظيما فقال في سورة النحل : "سلام عليكم

أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون، كما قال في سورة الحجر : « أن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين » .

كما جعل الله سبحانه وتعالى السلام وسيلة لمخاطبة الجاهل السفيه الأثيم فقال في سورة الفرقان : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ».

ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام يستخدم القوة والعنف لنشر مبادئه بل لم يجعل الحرب ذريعة من ذرائع نشر الدعوة الإسلامية فقال في كتابه العزيز : وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فإنما عليك البلاغ" .

فالله سبحانه وتعالى إذن لم يجبر المسلمين على استخدام القوة في نشر دينهم بل أمرهم أن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوا بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى المسلمين بألا يستخدموا وسائل البطش والتعذيب في معاملة أعدائهم وفعل الرسول بمصداق قوله تعالى : وما أنت عليهم بجبار، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد،، وجاء في صحيح مسلم عن بريده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع ".

وفي القرن العشرين قامت المنظمات الدولية النشر السلام وتجنب الحرب فقامت. عصبة الأمم والأمم المتحدة من أجل السلام وتجنب ويلات الحرب ففشلت الأولى وأصبحت أداة في يد المنتصرين في

الحرب العالمية الأولى لإرغام المقهورين على الرضوخ لشروط الصلح مما دفع ألمانيا إلى الانسحاب من العصبة عام ١٩٢٣ كما عجزت عن حماية الصين من اعتداء اليابان عليها وإنشائها إمبراطورية في منشوكو كما عجزت عام ١٩٣٥ عن حماية الحبشية من الغارة الايطاليين عليها ثم انتهى الأمر بها إلى الزوال وظهرت على مسرح السياسة الأمم المتحدة عقب اجتماع مؤتمر يالتا بين ٣، ١١ فبراير عام ١٩٤٥ ثم مؤتمر سان فرانسيسكو في ٢٥ ابريل ١٩٤٥ وقد استقر الرأي بعدئذ على إنشاء هيئة دولية عامة للمحافظة على السلم والأمن لان إنشاءها ضرورة لمنع الاعتداء أو لإزالة الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي إلى الحرب وذلك بالتعاون الوثيق المستمر بين الشعوب المحبة للسلام كافة .

وقد جاء في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة : " نحن شعوب الأمم المتحدة وقد ألينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي جلبت على الإنسانية مرتين في خلال جيل واحد أحزانا يعجز منها الوصف وان تؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الإنسانية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأطفال والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق مساوية وأن بين الأموال التي يمكن في ظله تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي وأن ندفع للرقي الاجتماعي قدما وان نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن تأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معا في سلام وحسن جوار وان نضم قوانا كي

نحتفظ بالأمن والسلم الدوليين".

وان من ينعم النظر في هذه الديباجة يجد أن الإسلام دين السلام ولا يستخدم الحرب إلا للضرورة القصوى وقد كان من أوله الأعمال التي قام بها التي بعد الهجرة إلى المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار وأقام حسن الجوار بين المسلمين ومن المهم ووقع الرسول بنفسه مع قريش في عام الحديبية معاهدة لحقن الدماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين وقد أمر الله تعالى بحسن معاملة المسالمين فقال :" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين" كما نهي عن الاعتداء والتشفي بالتمثيل والتعذيب فقال : "ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " وقال تعالى : " ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا" .

كما أن الإسلام حارب العصبيات والأفكار الجاهلية الأولى التي كانت تدعو إلى التعصب والتحيز وتبالغ في سمو جنس على جنس أو ارتفاع قبيلة على قبيلة أو سيادة جماعة على جماعة فقال عز وجل «إنما المؤمنون أخوة» كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لأفضل العربي على عجمي إلا بالتقوى، كما دعا الإسلام إلى عدم التفرقة بين الألوان والأجناس والشعوب والقبائل وقضى على العنصرية واثر عن الرسول أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى» ولم يفرق الإسلام بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى كما أوصي الإسلام الأفراد والدول باحترام

العقود والعهود والمواثيق فقال تعالى: «يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» كما قال عز وجل: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا أن الله يعلم ما تفعلون ».

بل ان الإسلام دعا إلى احترام المعاهدات بدقة وأمانة حتى مع الوثنيين فقال عز وجل: «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم أن الله يحب المتقين ».

وإذا كان الغرض من ميثاق الأمم المتحدة هو أقامة الشورى بين الدول حتى لا يستبد القوى بالضعيف فان الله تعالى قال في سياق مدح المؤمنين : "وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون"

كما قال :" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر".

وإذا كان ميثاق الأمم المتحدة ينص على تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعا والتشجيع على ذلك إطلاقا بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء فان الإسلام دعا إلى التآلف والتعاطف بين شعوب العالم فقال تعالى في كتابه العزيز : «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " وليس من شك في أن

في هذا التعارف تبادل المنافع على اختلاف أنواعها وشتى صنوفها ومن حكمته عز وجل خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان على نحو ما جاء في كتابه العزيز : "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" .

كما قال تعالى في الحرية الدينية : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » وقال عز وجل : « لكم دينكم ولي دين » .

وجعل للأنثى مثل حظ الذكر في الدواب والعقاب فلها في الآخرة درجات المتقين أو دركات الأشرار المفسدين من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون".

ولقد نص القرآن الكريم على تساوى الجنس البشري في أصله ومنبته فقال تعالى : " يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء كما نص الكتاب العزيز كذلك على كرامة الإنسان فقال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» .

كما يعتبر الإسلام الناس سواسية كأسنان المشط ويحارب الأنانية والأثرة والمنافع الذاتية، والرغبات الشهوانية فقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث شريف، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وهذه دعوة صريحة إلى المحبة والمودة والإخاء بين الناس جميعا وإزالة الفوارق والأنانية والأثرة بين النفوس البشرية.

أضف إلى ذلك أن الإسلام دعا إلى عدم انتقاص حقوق الناس أو البخس بها أو إغضاء النظر عنها، وفي هذا يقول الله عز وجل في كتابه العزيز « ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين» .

وهكذا ..

وهكذا كان الإسلام أولا وقبل كل شيء المصدر الأول للتشريع الدولي بل لقد تنبه إلى كثير من القوانين الدولية قبل أن تتنبه إليها الدول الحديثة ومثال ذلك ان الإسلام يستوجب إعلان الحرب ومنع الغدر فقال تعالى : "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين" فهذا المبدأ الأخلاقي لم يستطع القانون الوضعي أن يقره إلا منذ سنوات معدودة وكان ذلك عام ١٩٠٧ على اثر انعقاد مؤتمر لاهاى الذي نص على ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد إخطار سابق لا لبس فيه يكون إما في صورة إعلان حرب مسبب أو في صورة إنذار نهائي يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين وكذلك الحال بالقياس إلى عدم التنكيل بالأسرى ووجوب العناية بالمرضي وقد نصت بعض الاتفاقات الدولية التي عقدت في هذا القرن على هذه الأمور التي دعا إليها الإسلام منذ قرون طويلة .

وقد ضم القرآن الكريم بين جنباته ما يبهر رجال الاقتصاد في العالم فتحدث الإسلام عن عوامل الإنتاج كوسائل يسخرها البشر لخدمتهم ورفاهيتهم وطالبهم بأن يسخروها ويأكلوا منها ومن تمرها وجعل عوامل الإنتاج خدما للبشر لا البشر خدما للإنتاج أو عوامل الإنتاج فالطيبات حق لجميع من يمشي في مناكب الأرض ويستخدم وسائل الإنتاج فقال تعالى : وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا،، كما قال عز وجل : "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون ".

وقال تعالى : "وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه".

وقد قامت النظريات الغربية في الاقتصاد على كثير من هذه المبادىء الإنسانية التي تضمنها القرآن الكريم والإسلام الحنيف وتشدق بها الغربيون على أنها نتاج جديد وفكرة مبتكرة ولكنها . في الواقع وحقيقة الأمر تعود إلى الإسلام في مداها ولمتها كما تعود إلى كلمات الله عز وجل في كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الفصل الثاني

الفتوحات الإسلامية في أوربا

للإسلام فضل عظيم على الحضارة الحديثة لا يمكن تجاهلها أعضاء النظر. عنه، وقد أدى اتصال المسلمين بالغرب إلى انعكاس الحضارة الإسلامية على أوروبا، مما كان له أبعد الأثر في تطور الفكر العالي.

ويرجع اتصال المسلمين بأوربا إلى العصور القديمة في التاريخ بيد أن سلطان المسلمين اتسم بطابع الغزو منذ فتح الأندلس في العصر الأموي .. إذ حاول المسلمون في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي غزو اسبانيا من ناحية أفريقيا، فشوا غاراتهم على الشواطئ الأسبانية في عهد الإمبراطور القوطى "فمبا" عام (٦٧٢ – ٦٨٠ م).

وعندما تمكن موسى بن نصير من فتح بلاد المغرب، فكر في غزو أسبانيا وقد شجعه على هذا العمل الكونت "جولياف " الذي تحالف مع حزب أخيلاء لنزع "رودريك" آخر أباطرة الدولة القوطية في أسبانيا عن الحكم .

فطلب موسى بن نصير من الوليد بن عبد الملك أن يأذن له في القيام بحملة على أسبانيا فأذن له الوليد في شيء من التحفظ ونصحه بأن يتأكد من صدق نية "جوليان" مخافة أن تصاب جيوش المسلمين

بكارثة في هذه البقاع الفسيحة في أوربا.

وأرسل موسى بن نصير طريف بن مالك، على رأس جيش مكون من خمسمائة محارب عام ٧١٠ م (٩١ هـ) لإرتياد هذه المناطق نغزا الجيش الثغور الجنوبية في بلاد الأندلس، وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب . وقد ناصر "جوليان" جيش طريفة بن مالك في معاركه، وأمده بكثير من المدد مما حقق له النصر، فشجع هذا الصنيع موسى بن نصير على متابعة الغزو مرة أخرى فجند جيشا لجبا قوامه سبعة آلاف مقاتل جلهم من البربر، وولى القيادة للقائد العربي المشهور طارق بن زياد و كان طارق في هذه المدينة حاكما المدينة طنجة واشتهر بالعدل والشجاعة والقمة العالية .

وعبر طارق البحر عام ٩٢هـ في سفن "جوليان" والقيم اسمه في إقليم البحيرة بجنوب اسبانيا واستعد لمناجزة عدوه في عقر داره وكان الإمبراطور "رودريك" في هذه الآونة مشغولا بقمع الثورة الداخلية التي شبت في أرجاء البلاد ابتغاء خلعه عن العرش بيد انه عندما أدرك الخطر المحدق به من جانب المسلمين، سارع إلى تجهيز جيش كبير يبلغ عدده زهانمائة ألف مقاتله ونزل به إلى ساحة المعركة ولكن جيش رودريك، لم يكن منظما متماسكا، وكانت الحروب الأهلية قد فتت في عضده فلم يبد. ثباتا في القتال وانتهى الأمر بهزيمته هزيمة منكرة أمام جيش طارق بن زياد .

عاد "رودريك" إلى تنظيم جيشه وحضر إليه كثير من المدد فلما رأى طارق بن زياد هذه الجموع المتكاثرة من جيش (رودريك) طلب من موسى بن نصير آن يمده بعدد من المقاتلة فأرسل إليه موسى خمسة آلاف مقاتل، والتقى طارق بجيش رودريك» على ضفاف وادي نهر «بكة» Wady Bekka في يوليو عام ٧١١م (٩١هـ) وطفق طارق بشن هجماته على جيش رودريك، حتى أسلمه الهزيمة وعلي أثر انتصاره في هذه المعركة مضي يزحف على مدن اسبانيا، فوقعت في يده مدينة اشبيلية وقرطبة وطليطلة وغيرها من المدن الإسبانية .

ولما ترامب الأنباء إلى موسى بن نصير بانتصار طارق بن زياد، تملكته الغيرة لان فتح الأندلس سوف يكون مقرونا باسم غير اسمه فجهز جيشا لإتمام هذا الفتح حتى يكون له هذا الشرف وكتبه إلى طارق بن زياد يأمره بأن يقبع في مكانه ولا يتقدم من زحفه حتى تصل إليه أوامر أخرى.

ولكن طارق بن زياد لم يلق بالا إلى كتاب موسى بن نصير ومضى في بلاد الأندلس من نصر إلى نصر لأنه رأى أن توقفت الزحف سوف يمكن الأعداء من معاودة الهجوم على كتائبه ويعرض جيشه خطر داهم ويعطى لأعدائه الفرصة للنيل منه ورده على أعقابه " .

وعندئذ سارع موسى بن بشير إلى التوجه إلى الأندلس على رأس جيش سبب في يونيو عام ٧١٢ م (٩٣ هـ) وأخذ يطوق بجيشه المدن الاسبانية فتح أشبيلية مرة أخرى، وحاصرها شهرا وكانت قد رفعت راية

العصيان على جيش طارق بن زياد –كما فتح غيرها من المدن الاسبانية تم لحق بجيش طارق بن زياد، وعندما التقى بطارق لامه على عدم إذعانه للأمر، وطالبه بما استولى عليه من غنائم وأسلاب .. بل أنه تمادى في إهانته فوضعه في السجن.

وعز على أنصار طارق بن زياد أن يسجن قائدهم وهو الذي حقق هذا النصر المؤزر في اسبانيا، فعولوا على إنقاذه وإخراجه من معتقله واستطاع طارق بن زياد بفضل أنصاره أن يتصل بالخليفة الوليد بن عبد الملك الذي بث إليه شكواه فكتب الوليد إلي موسى بن نصير أن يطلق سراحه، ويرده إلى عمله، ويسند إليه القيادة مرة أخرى .

ونفذ موسى بن نصير أمر الخليفة الوليد وسار موسى وطارق معا لفتح شمال بلاد الأندلس، وبعد أن زالت الجفوة بينهما، ففتحا إقليم أرغونه angon وقشتالة Cantile وبرشلونة Borue lone وغيرها من المدن الأسبانية حتى بلغا جبال البرانس في أقصى الشمال فتم بذلك فتح شبه الجزيرة، عدا تلك الأقاليم الجبلية الواقعة في الشمال الغربي التي آوي إليها بعض أشراف القوط ورجال القبائل الثائرة التي رفضت أن تخضع لحكم المسلمين في اسبانيا.

وعول موسى بن نصير بعد تحقيق هذا النصر المبين، على أن يتوجه بجيشه إلى فرنسا حتى إذا ما تم له الغزو اتجه إلى القسطنطينية شرقا، وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية خالصة، تدين لها

شعوب أوربا جميعا بالخضوع والولاء.

وعندما وصلت أنباء هذه المطامع إلى الوليد بن عبد الملك، أمر موسى بن نصير أن يخفف من آماله فالفرصة غير مواتية في تلك الظروف لتحقيق هذه الآمال العريضة واستدعى الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد ولكن موسى قبل رحيله إلى دمشق نصب ابنه عبد العزيز واليا على بلاد الأندلس فأظهر من العدل والمساواة ما أقلق خصومه فعولوا على الانتقام منه .. ولا سيما أنه سارى بين جميع طبقات الأمة دون تمييز في الجنس أو الدين وشجع العرب ع لى مصاهرة المسيحيين وضرب هو المثل على ذلك فتزوج من أرملة "رودريك" التي بقيت على دينها .

ودبرت على اثر ذلك مؤامرة لقتله، وبعد مصرعه أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير واليا على بلاد الأندلس فاتخذ قرطبة عاصمة للبلاد وعمل بها بعض الإصلاحات غير أن مدة ولايته لم تطل.

وعندما تولى حكم الأندلس «السمح بن مالك» عامر (١٠٠ - ١٠٢هـ) اخترق جبال البرانس وزحف على إقليم بروفانس في فرنسا وحاصر مدينة تولوز فترة طويلة ولكنه اضطر أخيرا إلى الانسحاب .

وعندما تولى "عبد الرحمن الغافقي" الحكم في الأندلس عام ١١١ هم عاد نجم المسلمين في الأندلس إلى البزوغ والارتفاع، إذ قام بكثير من الإصلاحات التي رفعت الروح المعنوية للعرب في هذه البقاع وجهز

جيشا للقتال في بلاد غالة فخرج ثمانية آلاف مقاتل، واستولي على دوقية «اكتيانيا» وهي مقاطعة مستقلة جنوب اللواء .

وجمع شارل مارتل جيشا كبيرا اصطدم بالمسلمين في معركة "بوانييه" وهناك دارت المعركة الخالدة المعروفة في التاريخ باسم معركة نور، ويسميها مؤرخو المسلمين بلاط الشهداء» عام ٧٣٢ م (١١٤ هـ) التي أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ضربت به الآمال وكاد النصر يتوج هامات المسلمين في هذه المعركة وبذلك يتمكنون من فتح أوروبا برمتها ونشر الإسلام، بيد أن الدوائر دارت عليها في نهاية المعركة الطاحنة وأصيب عبد الرحمن الغافقي بسهم أرداه قتيلا فانتشرت الغيني بين الصفوف ودبت الفرقة بين النفوس و ازدادت المطامع في الاستيلاء على الحكم مما بعث الاضطراب في الجيش العربى فاضطر إلى التقهقر والانسحاب إزاء هجمات شارل مارتل .

ولولا هذه الهزيمة التغير وجه التاريخ واستطلاع العرب ان يمدوا سلطانهم إلى بلدان أوربا كافة واستطاع الإسلام أن يدخل هذه المناطق .

وقد عمل المسلمون في الأندلس على نشر العدل والمساواة وإزالة الفوارق بين الطبقات وقد رحبت طبقة العبيد ورفيق الأرض أيما ترحيب بالفتح الإسلامي واعتبرته خلاصا لها من نير الاستبداد وريقه الاستعباد وفداكا لها من تلك القيود التي وضعها أسيادها لقوط باغين طاغين ظالمين بل إن بعضهم أعنف الإسلام والوا الحقوق إلى أتيحت لغيرهم من المسلمين وأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

وفي طليطلة باسبانيا نشأ أكبر مركز للدراسات الإسلامية ونقل الآبار العربية إلى اللغات الأوربية وقد نشأت فيها بمساعى رئيس الأساقفة "ريموند الأول ١١٢٩– ١١٥١" مدرسة نظامية للترجمة لمع فيها مترجمون ماهرون ووفد إليها من الجزر البريطانية مايكل سكوت Micta . Scot وروبرت أوف tobert of Chester} وقد نقل روبرت كتات الجبر للخوارزمى كما نشر أول ترجمة لاتيمية القرآن الكريم (الراهب بطرس المحترم).

كما انتشرت العلوم العربية في لياج Liege وجورز orze) وكولون Cologne في جنوب فرنسا .

وقد عمل المسلمون في الأندلس على نشر الإسلام . وإنشاء المساجد و تشجيع العلم حتى قال العالم دوزى لم يكن يوجد في بلاد الأندلس رجل أمي وأحد في الوقت الذي لم يكن في أوربا من يلم بالقراءة والكتابة إلا طبقة القسس، وقد أنشأ الحكم الثانى ٢٧ مدرسة مجانية بلوازمها لكي لا يبقى أحد من رعيته محروما من نعمة العلم، وكانت جامعة قرطبة أشهر من الجامعة النظامية في بغداد .

لم يقض العرب تماما على التوار القوط في بلاد الأندلس إذ اعتصم فريق منهم بالجبال وشكلوا وراء تلك السلسلة الجبلية في استورياس حكومة ثورية وشرعوا يشنون الحملات تلو الحملات على العرب . ولم يثبت أن عضدهم ملوك الفرنجه وأمدوهم بالجيوش فاستعادوا جليقيا

Galice وقسما من قشتاله Castities حتى أصبح العرب محولين من أماكن مختلفة بقوات الثوار .

ومما ساعد هؤلاء الدوار في أداء مهمتهم ذلك الخلاف الناشب محول العرش الأموي، وتلك الثورات والفتن التي سميت في أنحاء مختلفة من الأندلس – حتى تسني للأسبان الهجوم على العرب .. فاستولى على ثلث ما استولى عليه العرب . أما الثلثان الباقيان فقد قام عليهما ملوك الطوائف وأشهرهم نبوزيري في غرناطه Grenada ٤١٠ هل ١٠١٩م وبنو عامر في بلنسية Valence ٤١٢ هي أي ١٠٢١م وبنو عباد في إشبيليه Seville ٤١٤ هـ ١٠٢٣م وبنو هود في سرقسطه Saragosse.

وقد صدق في هؤلاء الملوك قول الشاعر ابن الخطيب :

حتـى إذا سـلك الخلافـة انتشـر وذهـب العـين جميعـا وللأثـر

قـام بكـل بقعـة مليـك وصـاح فـوق كـل غصـن ديـك

ولم يأت النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد حتى تولى الملك الفونس الثالث ملك قشتتانه قيادة الحلفاء فدخل طليطلة عام ٤٧٨ مم أي ١٠٨٥م واتخذها عاصمة لدولته ودعا الأماكن التي افتتحها قشتاله الجديدة، وأرسل يهدد المعتمد بن عباد وصاحب قرطبه واشبيلية وأعظم ملوك الطوائف، وشعر الأندلسيون بسوء المصير وقال ابن العسال الطليطلي :

حثـوا أرواحكـم يـا أهـل أنـدلس فمـا المقـام بهـا إلا مـن الغلـط
السـلك ينشـر مـن أطرافـه دارى سـلك الجزيـرة منثـورا مـن الوسـط

وقد عقدوا مجلسا في قرطبة اجمعوا فيه على استنجاد دولة المرابطين ولكن جهودهم كانت عبثا.

وفي هذه الفترة التي كان ملوك الطوائف يضمحل ش أنهم كان يوسف بن تاشفين سلطان البربر **٤٥٣ - ٥٠٠** هـ قد قبض على ناصيتي المغرب الأقصى والأوسط، وبني مدينة مراكش ليقيم فيها ولما أتته رسل الأندلسيين يطلبون النجدة اجتاز بجيش كثيف إلى اسبانيا وغلب الأسبان في معركة يقال لها الزلاقة عام **٤٩٩** ها **١٠٨٦**م، ولما شاهد يوسف بن تاشفين هذه الانتصارات العظيمة التي حققها بنفسه حدثته نفسه أن يسيطر على الأندلس، فكان الأندلسيون كالمستجدين من الرمضاء بالنار، وتمكن يوسف بن تاشفين من الاستيلاء على مدينة "إفراغه" في شرق الأندلس، وعلى مدينة "لشبونه" في غرب الأندلس، واستطاع أن يسترد الحصون التي أضاعها ملوك الطوائف، ولكن لم يلبث أن ظهرت دولة أخرى في عهد ابنه تاشفين **٥٣٧** هي **٥٣٩** هـ قضت على دولة المرابطين في المغرب واسبانيا، وتم لها القضاء الأخير في عهد حفيده إسحاق **٥٤١** هـ، **١١٤٦**م.

ولم يهمد الفرنج عن عمل المحاولات المتواصلة لإخراج المسلمين من اسبانيا، وكان البابا يدعو إلى إخراج «الهراقطة من الأندلس وقد استمرت المناوشات بين دولة الموحدين والفرنج فترة طويلة حتى

استطاعوا أن يخلوا كثيراً من المدن الأندلسية، التي استولى عليها العرب، وكان آخر الإمارات التي ظلت في حوزة العرب في اسبانيا هي إمارة وغرناطة » وكانت في يد بني الأحمر، ولما انتهى الملك إلى أبي عبد الله آخر ملوك "غرناطه" كانت مملكة أسبانيا المتحدة قد قامت عقب أن تزوج فرديناند بايزابيلا، وقد استولت هذه المملكة على ضواحي غرناطة وحاصرتها فترة طويلة حتى لم يجد أبو عبد الله مفرا من الملح، ولكن قائده موسى أبي ذلك، وطلب أن يحارب حتى آخر قطرة من دمائه، وناشد الملك ورجال الدين أن يمهلوه ريثما يهجم بجنده على الأعداء المحاصرين، فإما أن يخترق صفوفهم، وأما أن يموت ولكن هذا كله لم يجد فتيلا، وأخيرا لم يجد الملك مناصا من المفاوضة في شأن الصلح فأرسل أبو عبد الله وزيرا إلى ملك الأسبان لهذا الغرض فاستقبله الملك استقبالا حسنا وعرض عليه شروط الصلع وكانت سبعة وستين شرطا، فعاد بها الوزير إلى أبي عبد الله فعلم أن أهمها أن يكتب أهل غرناطة البيعة لصاحب قشتاله فيسلموه المدينة ومفاتيحها، وما فيها من الحصون على أن يؤمن المسلمون في النفس والأهل والمال، ويقيموا شريعتهم على ما كانت عليه، ويفك أسعار جميع الأسرى، الأسبان في غرناطة .

وقد اضطر أبو عبد الله إلى الإذعان لهذه الشروط، ولكن موسى قائد الجيش أبى عليه ذلك، والتفت إلى الجند وقال : اتركوا العويل والبكاء للأطفال والنساء، وهيا إلى ساحة الحرب، بقلوب أضراها اليأس، ولنمت هناك مرت الأبطال .. أنأبي الموت في دار الشرف والجهاد، أفضل أن نرى مدينتنا تدخل في حوزة العدو ونحن مكتوفو الأيدي لا

نبدى حراكا، أم أن نموت في الدفاع عنها موت الشهداء ؟

أمان نفوسنا، وفقدنا تلك الحمية التي كانت تتغذي في صدورنا ٠٠ إذن فكيف نرضى بهذه الشروط الشائنة، وبطبع نير العدل والهوان على أعناقنا، إني أرى اليأس مستوليا على القلوب .. وأبواب النجاة موصدة في الوجوه، على أن للأبي الحر ملجأ يلجأ إليه إذا سدت في وجهه سبل النجاة، ألا وهو الموت، فانى لأونر أن أموت حرا كريما على أن أعيش عبدا ذليلا، أظننتم أن الفرنج يصدقون في وعودهم لكم، وان ما يبديه ملكهم الآن من الرقة واللين يدوم بعد أن يملك ديار كم، ويضع نيره الثقيل في أعناقكم، لا والله . فلا تخدعوا أنفسكم، أن الموت لأخف مما سيحل بنا من البلايا والأموال، فكيف تخافونه، وان تخافوا فخافوا لهب مدينتكم، وتدنيس مساجدكم، وانتهاك أعراضكم، واشتداد الظلم عليكم، فذلك ما ستلقونه من عدو كم، وسيرى الذين منكم يخافون أن يموتوا اليوم موت الأبطال ما هو أشد من الموت عذابا أما أنا فو الله لن أرى ذلك ان الموت لابد منه أن عاجلا أو آجلا فلنقض ما بقي منا من هذه الحياة بالثأر من الأعداء، هلموا إلى الموت، أن أمنا الأرض فاتحة صدرها الرحيب لتضمنا إليها، وان ضاق صدر الأرض عنا، ولم يكن لنا فيها قبور . فيكفي أن تكون السماء غطاء لأجسادنا، هلموا أيها الأسياد، فلا يقال عنا أن رجال غرناطة جبنوا عن الموت في ساحة الجهاد."

فهب معه فريق من المسلمين وظلوا يجاهدون كالبنيان المرصوص بيد أن الخيانة أدت دورها، وفي الثامن من شهر يناير عام ١٤٩٢ م،

استعد فرديناند وإيزابيلا لدخول غرناطة، واستلام مفاتيح غرناطة من سلطانها المغلوب على أمره، فتقدما تحفهما كوكبة من القران، وقد اتشحا بمطارق الأبهة والجلال، وانتظرا مقدم أبي عبد الله ومعه المفاتيح الموجودة التي طالما تاقا إلى استلامها، فلما أزفت الساعة اقبل أبو عبد الله شاحب الوجه ذاهبة اللون وكان ممتطيا صهوة جواده فلما اقترب من فرديناند ترجل احتراما لشخصه، ولكن فرديناند منعه من ذلك، فاقترب منه أبو عبدالله وحياه، ثم قال والدموع تترقرق في ما قيه وتنهمر على صدره في حركة لاشعورية «أيها الملك العظيم تلك إرادة الله أن نسلمك مدينتنا وديارنا وقد أصبحنا منذ الآن من رعاياك فاجعل انتصارك علينا مقرونا بالحلم والعدالة" . لم أنحني له وقدم له مفاتيح الحمراء فقبله فرديناند وعزاه بكلمة لطيفة . ولكن أبا عبد الله لوى وجهه. وامتطى صهوة جواده وانجه مع رجاله صوب جبال البترات حيت كانت تنتظره.

فلما وصل أبو عبد الله إلى الجبال وتطل على غرناطه بكى . وهذا المكان أطلق عليه الفرنج "آخر تنهدات العربى".

وفي أثناء رحيلهم دوى سون أمه وهي نصيح. عندما شاهدته يبكى « أبك كامرأة على ملك لم تستطع أن تحافظ عليه كرجل"

وأسدل الستار على أمجادهم الساحقة في هذه البقعة من الأرض وقضى الاختلاف والتناحر بين الملوك والإقبال على ملك المسلمين الذي كان يمكن أن يمتد ويتسع حتى يشمل أوربا برمتها.

هذا وقد اتصل المسلمون بأوربا اتصالا آخر يختلف عن اتصالهم بالأندلس ويختلف عن الطريق التي سلكوها من أجل هذا الغرض، إذ حاولوا دخول أوربا من الجنوب عن طريق ايطاليا ففتحوا جزيرة صقلية وكثيرا من مدن ايطاليا حتى حاصروا «رومية مقر الحبر الأعظم أو البابا ولم يحاولوا أن يحولوا كنيستها الكبرى إلى مسجد كما فعلوا بالجامع الأموي في الشام أو "أبا صوفيا" في الأستانة .

وقد اتجهت أنظار المسلمين إلي صقلية لأنها تقع في منطقة متوسطة في البحر الأبيض وتربط الشرق بالغرب عن طريق السفن الرائحة والغادية . وكانت ترسو فيها السفن القادمة من صور وقرطاجنة وطرسوس وبيزنطة وغيرها.

وبدأت المحاولات في عهد معاوية بن أبي سفيان فقدهم المسلمون بالغزو عام ٦٦٩م وشنوا غاراتهم على مدينتهم "سراقوسة" وغيرها من مدن الجزيرة ولما عمد موسى بن نصير إلى فتح أسبانيا أنفذ ابنه عبد الله بجند إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط، فغزا ميورقة، ومنورقة، وسردينية وصقلية وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب.

ويروى في سبب فتح صقلية أن قائدا من حامية الروم، اسمه " يوفيميوس " أحب راهبة في بعض الأديرة كان قد وقع نظره عليها في الدير فهرب بها وتزوجها فنما خبره إلى صاحب القسطنطينية فأحل دمه وأمر بقتله ففكر القائد في الانتقام وشن بحملة ثائرة في الجزيرة ورفع

راية العصيان ولكن الدوائر كادت تدور عليه ويخفق في ثورته ويقع في أيدي أعدائه وينفذ فيه حكم الإعدام فاستنجد بالعرب وأرسل إلى زيادة الله يحرضه على غزو الجزيرة كما حرض "جوليان" صاحب "سبته" موسى بن نصير على فتح الأندلس .

فتردد "زيادة الله" في إجابة هذا الطلب ولكنه آثر أن يستشير أصحابه فرجحت كفه وأصحابه بالقيام بهذا الغزو واحتجوا بأن الروم قد نكثوا المعاهدة المعقودة بين الطرفين فجهز وزيادة الله حملة عهد بقيادتها إلى «أسد بن الفرات، قاضي تونس وانضم إليها كثير من قبائل المسلمين البربر وركبوا البحر في عمارة مؤلفة من مائة مركب أقلعت من مرفأ "سوسة" في ١٣ يونيو عام ٨٢٧ م (٢١٣ هـ).

ووصلت الحملة إلى مدينة "مازارا" فاستولى عليها العرب نم توجهوا إلى مدينة "سراقوسة "، أهم مدن صقلية وكانت مدينة حصينة واسعة الأرجاء ممتدة النواحي محيطها أحد عشر ميلا و نصف ميل و تضم طائفة من الأبراج والحصون المنية والمعاقل الضخمة والأسوار الشامخة التي تضرب في عنان السماء وقد صمدت المدينة إزاء هجمات المسلمين صمودا جعل أسد بن الفرات يطلب المعونة فحضر إليه المدد واستأنف هجماته على المدينة في قوة لا تلين ولكن الصقليين أظهروا من الحذق والمهارة العسكرية ما أقلق جنود المسلمين حتى جاع المسلمون وأكلوا لحوم الحيل.

وتحالف المسيحيون في الجزيرة مع الجنود الأهليين على إخراج العرب بإشارة من الإمبراطور ميخائيل حاكم القسطنطينية وحدث في هذه الآونة أن أدركت المنية « القائد أسد بن الفرات، قائد تلك الحملة فديت الفرقة بين صفوف المسلمين واضطروا إلى التقهقر والانسحاب

وهجم المسلمون بعد ذلك على "كاسترو جيوفاني" وهو حصن منيع على جبل وعر فيه حامية من الروم والصقالية فخندق المسلمون حوله وحاصروه و فصلوه عن بقية أجزاء الجزيرة ونشروا حكمهم في هذه المنطقة باسم الدولة الأغلبية وسكوا العملة. بهذا الاسم وعندئذ ثارت نفوس الصقالبة على المسلمين فرجعوا إلى "مينيو" واشتد أوار الحرب بين الفريقين عامين كاملين .

ثم جاءت عمارة عربية من الأندلس بقيادة "أصبغ بن وكيل" أمدت العرب بالمعونة والمئونة. وجهز «زياد الله » عمارة من ثلثمائة سفينة وعشرين ألف مقاتل لهذا الغرض : وأبحرت هذه العمارة من شواطئ أفريقيا عام ٨٣٠ م (٢١٥ هـ) وقتلت هذه الحملة "ثيودوتس" قائد الروم أمام أسوار "مينيو" بيد أن الوباء تفشى بين الجند تفشيا ذريعا وأصيب كثير من العرب بالهلاك فعادت الحملة أدراجها إلى أفريقيا والأندلس بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأموال والأرواح.

ولكن شرذمة من جند المسلمين شنت الغارة على مدينة "بالرم" واستطاعت هذه الشرذمة أن تفتحها وتجعلها قصبة للحكم وتنشر وجوه

الإصلاح في كل مكان،، تبني المنازل والقصور وتحفر الترع وتغرس الأشجار وتنشر العدل والمساواة بين الطبقات .

ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الجنود المسلمين فادعي جند الأندلس حق الفتح وطلب أن تكون د بالرم، تابعة لبني أمية في الأندلس كما ادعى الأفريقيون حق الفتح وطلبوا أن تنضوي "بالرم" تحت لواء الأغالبة وكانت الغلبة للطائفة الأخيرة فعين "زيادة الله" أميرا من قبله على الجزيرة.

واستولى المسلمون على "نابولي" في ايطاليا وقد أعان أهل نابولي المسلمين على ارتياد شواطىء البحر الأدرياتيكى ومهدوا لهم سبيل التوغل في المدن الايطالية وقد نزل المسلمون عند مص ب نهر د يو، وبلغوا أبواب مدينة « رومية، وغيرها من مدن ايطاليا .

وقد قضيت صقلية في سيادة المسلمين نيفا ومائتي سنة بعضها في دولة الأغالبة ثم الفاطميين وغيرهم واستقل أمراؤها بها حينا، وتوارثوا حكومتها، وتنازعوا عليها حتى انقسمت إلى مقاطعات وشرع كل أمر ينافس غيره في مقاليد الحكم و كان على سراقوسة وغيرها عام (١٠٦٠ م) (٤٥٢ هـ) ابن تمنة وكان على حصن "كاسترو جيوفانى" ابن حواشى فنحاربا واشتبك الطرفان في معارك طاحنة أدت إلى انهزام أين تمنة واستيلاء ابن حواش على مقاطعته.

أما سائر ايطاليا فقد ظلت أربعة عشر عاما تحت حكم العرب اركان

دوقا "مسبوليتو وتوسكانا" ناقمين على البابا فتحالفا مع المسلمين على تجريده من أملاكه وظل أحد البابات يؤدي الجزية للمسلمين عن كرسيه فترة طويلة .

وبعد دلك شرع نفوذ انورمان يزداد وينتشر وطفقوا يتدخلون في شتى أمور الحكم وكانوا قد هبطوا من اسكندنافيا في القرن التاسع واكتسحوا فرنسا وتولوا الحكم فيها زمنا.

وفي القرن الحادي عشر ولوا وجوههم شطر ايطاليا تدفعهم المطامع الجريئة والآمال العريضة ويعضدهم ضعف الحكم وانتشار الفوضى في ايطاليا وما حولها من جزر .

ولم ينقض "النصف الأول" من القرن الحادي عشر حتى أصبحت مقاليد الأمور في أيدي النورمان وأصبحت سياسة ايطاليا رهن إشارتهم و كان نفوذ المسلمين في هذه الآونة قد بدأ في التقلص والاضمحلال فساعدهم ذلك على شر نفوذهم في تلك المناطق واستولوا على جزيرة صقلية ووصلوا مدينة . "بالرم" عام ١٠٧١م (٤٦٤هـ) وقد ثبت المسلمون في قتال النورمان نبات الأبطال وأظهروا من ضروب البسالة والشجاعة والأقدام ما أذهل الألباب . بعد أن بعض الخونة دلوا النورمان على مواقع الضعف في جيوش المسلمين فشنوا عليها الغارات تلو القارات حتى وقعت مدينة ، بالرم، في أيديهم بعد حصار عنيف دام خمسة أشهر.

وفتح النورمان بعد ذلك "سراقوسة"، وسلم أهل "كاسترو جيوفانى" الحصن لهم وفي عام (١٠٩١م (٤٨٤ هـ) لم يبق للعرب في الجزيرة الا "بوترا" "ونوتوا" فانتقلنا إلى النورمان بتوقيع إحدى المعاهدات بين الطرفين وبذلك أسدل الستار على حكم المسلمين في هذه الجزيرة.

وقد أغرم كثير من ملوك صقلية بالثقافة العربية غراما شديدا ومنهم الملك روجر الأول المتوفي عام ١١٠١ فبالرغم من أنه كان نصرانيا غير مثقف فانه استعان بكثير من المسلمين في جسد اكتريه المنشاة في جيشه وشمل العلوم العربية برعايته فقرب الفلاسفة الشرقيين والمتخفين والأطباء.

وقد بذ روجر الثاني أباه في حب العربية و كانت جبته مزينة بالحروف العربية وظل الزى الإسلامي شائعا حي ولاية حفيده وليم الثاني ١١٦٦ وقد شاهد ابن جبير النساء النصرانيات في « بانرم » في ذلك العهد خارجات في أزياء المسلمات ولدينا من عهد روجر الثاني أقدم النقود التي تحمل تاريخا مكتوبا بالأرقام العربية ١١٣٨.

أما فردريك الثاني فقد استعان كذلك بجهود العرب المسلمين واستدعى أهل اختصاص من مصر لإجراء التجارب في بيض النعام وحضانته وتفقيسه بحرارة الشمس وفي عام ١٢٢٣ وصله من السلطان الأشرف الأيوبي آلة بديعة فيها أشكال الشمس والقمر وقد . رتبت بصورة تتعين بها الساعات في مواعيد دورانها فأرسل الإمبراطور مقابل

ذلك دبا وطاووسا أبيض أدهشا الدمشقيين كما أدهشت معاصريهما أهل صقلية الزرافة التي وصلتهم من مصر .

وأنشأ جامعة نابولي عام ١٢٢٤ وهى أول جامعة أوربية تأسست ببراءة خاصية وقد أودع فيها مجموعة من المخطوطات العربية النفيسة وجملة من الكتب التي أوصى فردريك بترجمتها إلى اللغة العربية .

وقد قامت جامعة نابولي بدور كبير في نشر الثقافة العربية في الخارج.

الفصل الثالث

أثر ثقافة المجتمع العربي في أوربا

بلع المسلمون منذ العصور الإسلامية الأولى درجة كبيرة من النبوع الفكري والنماء العقلي وعندما بلغ العرب أوربا وجاسواً خلال ديارها كان لهم أثر أي أثر في الفكر الأوربي والحضارة الغربية وقد كان هذا الأثر متجليا تارة في العلوم وتارة في الفلك ومرة في الموسيقى والشعر ومرة في هندسة البناء وما إلى ذلك، وجدير بالذكر أن كتاب « إحصاء العلوم » للفارابي كان ذا قيمة كبيرة عند المشتغلين بنظرية الموسيقى عند الأوروبيين و قد أشار "فارمر" إلي هذه الحقيقة وأضاف إلى ان منفعة الكتاب الحقيقية إنما هي في توجيه انتباه الغربيين إلي العلوم العربية التي أقبل عليها طلاب المعرفة منهم وجدوا في تحصيلها والاستزادة منها، أما ابن سينا فقد تأثر به كثير من مفكري الغرب وعلى رأسهم « جندبسالينوس» رئيس ديوان الترجمة في أسبانيا الذي اقتبس من ابن س ينا براهينه عن وجود النفس ورموزه الفلسفية . أما ابن رشد فقد سماه دانتي « الشارح الكبير » والمشهور أن مدرسة "بادوا" بايطاليا كانت تنتمي إلى مدرسة « ابن رشد » وان سيجر دو برابان كان زعيم المدرسة الرشيدة بايطانيا أبان القرن الثالث عشر . ويعتبر ابن البيطار « توفي سنة ١٢٤٨ م) أشهر علماء النبات والصيدلة في الأندلس وقد رجع إلى مؤلفاته في هذه المادة عدد كبير من علماء الغرب.

ومن أشهر مؤلفاته كتاب "المغني في الأدوية المفردة" وكتاب الجامع في الأدوية ويعتبر هذا الكتاب الأخير أعظم كتاب في العصور الوسطى من نوعه ففيه نجد عرضا لنحو ١٤٠٠ مادة منها ٣٠٠ مادة بينها نحو ٢٠٠ نبات أما عدد المؤلفين الذين أورد الكتاب ذكرهم فيبلغ نحو مائة وخمسين مؤلفا كما أمر التصوف الإسلامي في أوربا ويكفي أن نذكر متصوفا عربيا مثل ابن عربي ولد في مرسية عام ١١٦٥ ولمع في أشبيليه حتى عام ١٢٠١ م و كان له أثر كبير في حركات الفكر الغربي في أوربا إذ كان رائدا من رواد المدرسة الإشراقية التي آمنت بأن الكون جوهر فرد كما آمنت بشمول الألوهية ووحدة الوجود.

كما اعتقد ابن عربي بأنه ليس هناك إلا مرشد واحد للمتصوف الحقيقي وهو النور الداخلي ومن هنا فهو يجد الله الحق في كل البيانات.

وأثرت هذه المدرسة في حلقات الصوفية في فارسى و تركيا كما أثرت في مدرسة فلاسفة النصارى للعصور الوسطى أي المدرسة الأغسطينية وفي أفراد منها مثل.

دنس سكوتس Duns Scotus

وروجر باكون Roger Bacon

وريمو ندلل Raymondhull

وقد فاض سيل المعارف الأندلسية في القرن الثاني عشر على أوربا كلها حتى ان بعض الكلمات العربية شاعت في المع ارف والعلوم الغربية ومثال ذلك كلمة شراب Syrup قيل أنها أخذت من كلمة شراب العربية أما لفظه و صودا، التي كانت تستعمل في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بمعنى وجع الرأس فمسقاة من كلمة الصداع العربية ومن الألفاظ الكيماوية Alchohol وهى مستمدة من كلمة الكحول العربية والتوتي Tatty وهي مستقاة من كلمة التوتياء العربية والأمبيق Alem bi وهي مستمدة من كلمة الأمبيق العربية .

وفضلا على هذه الألفاظ العالمية فقد ظهرت في اللغات الأوربية مجموعة أخرى من الألفاظ ذات الأصل العربي في شتى نواحي الحياة والاجتماع ومثال ذلك كلمة القطن Cotton أو الحرير الموصلي Inualit الحرير القزى Gawse أو الحرير الدمشقي latras او الجلد المراكتى morocco أو الجية Jupe أو العطر Attaril أو الشراب Syrup أو الأرز Rice الليمون Lemba أو السكر Sgrua أو الفندق Foula والقطيفة Al catifa والرطل Arratel والقباء Gadam وقد أشار العالم ابانيز إلى ان عصر النهضة مدين الحضارة الأندلسية قبل الحضارة الإيطالية التي أتت في أعقابها وذلك لأن عصر النهضة أو الرنيساس لم يكن عصر جديد للفنون الأفريقية إنما كان عصر تجديد في الحياة العملية والمرافق الصناعية والتجارية.

ومن الحقائق الواضحة أن أبناء أوربا كانوا يتعلمون فنون الأنغام من

العرب في الأندلس بل إنهم نقلوا بعض الألفاظ العربية إلى لغاتهم الأوربية ومن ذلك كلمه Lite أي العود وكلمة نكر Naker من النقارة وكلمة :Rede من الرباب وهلم جرا وفد شاع في أوربا كذلك الفن العربي في النفش وأطلق عليه الغربيون Arabesque بل إن بعض القطع التي شيدها أهل الغرب في أوربا كانت تحمل الطابع الإسلامي العربي ولاسيما بعد أن أطلعت الحروب الصليبية التي دارت بين الشرق والغرب أهل أوربا على فنون العرب وأساليبهم في بناء القلا ع والحصون .

أما في ميدان الطب فقد سبق المسلمون الإفرنج في وصف أمراض الجذام وشرح مرض الجدري والحصبة وعلاجها وعلاج أمراض العين، بل إنهم توصلوا إلى معرفة العلاج النعسان ومن ذلك أن ابن سينا دعي لعيادة فتى مريض لم يهتد الأطباء إلى علته فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يد الفتي يجس نبضها ويرقب وجهه وطلب من العريف أن يسرد أسماء الأحياء في المدينة فمردها حتى جاء ذكر حتى منها فازداد نبض الفتي ثم سأله أن يذكر البيوت التي في الحي فازداد النبض عند واحد منها فسأله عمن في البيت من الفتيات وقال لأهل الفتي: زوجوه تلك الفتاة فهذا هو الدواء .

وبني هارون الرشيد المدارس و بيوت المرضى والصيدليات وأباح الانتفاع بها لعامة الناس وكان طبيبه جبرائيل بن عبد الله بن يختيشوع مكرما لديه وفي أيامه ترجمت كتب الحكمة والطب تفحص الأطباء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن أهلا من مزاولة هده المهنة : وأنشأ المأمون

ندوة علمية وجمع إليه العلماء من كل صوب وحدب و بدل من الأموال مالا يقدر لشراء الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية فكانت بغداد حينئذ عروسى الدنيا ودار العلوم وميدانه الأدب وقيل أن العلماء والمدرسين فيها وأعضاء ندوتها العلمية بلغوا لذلك ستة آلاف، و كان يوحنا ما سويه من مشاهير الأطباء في العصر العباسي وقد توفي عام ٢٤٣ هم بعد أن قام بجهود كبيرة في ميادين الطب . والطريف أن الأطباء العرب توصلوا إلى معرفة بعض الآداب التي ينبغي أن تتوافر في الطبيب مما جعلها الأطباء في العصر الحديث دستورا لا يحيدون عنه وبيان ذلك أن المتوكل أراد امتحان أحد أطبائه ويدعي ابن إسحاق ليعرف مكانه من صدق الخدمة فخلع عليه وأقطعه بما يساوي خمسين ألف درهم ثم طلب منه أن يصف له دواء يقتل به عدوا له لا يحب ذكر اسمه – فأجابه ابن إسحاق ، يعفوني أمير المؤمنين فاني لم أتعلم غير الأدوية النافعة ولم يخطر ببالي أن يطلب مني خلافها، ولما لم يظفر منه بطائل أخافه وتهدده ثم أرسله إلى السجن في بعض القلاع وتركه مدة وبعد ذلك أحضره وأعاد عليه الطلب فأصر على امتناعه . فأمر الخليفة بإحضار السيف والنطع وقال نقتلك ان لم تفعل فقال ابن إسحاق : "ان لي ربا يأخذ حقي غدا في الموقف الرهيب" فتبسم المتوكل و قال له : " طب نفسا فانا إنما أردنا امتحانك والثقة إليك، فقبل ابن إسحاق الأرض وشكر، وبعد أن هدأ روعه سأله الخليفة ما الذي منعه من الإجابة مع ما رأيت من صدق الأمر منا في الحالين فقال : شيئان الدين والصناعة، أما الدين فانه يأمرنا باصطناع المعروف حق إلى أعدائنا، وأما الصناعة فإنها

موضوعة تنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بإيمان مغلظة ألا يعطوا أحدا دواء قتالا أو مضرا فقال الخليفة أنهما شرعان جليلان وأنعم عليه فحمل إنعامه وخرج وهو أحسن الناس حالا وأنعمهم بالا.

وقد اقترنت بصوت العرب في الطب ببحوثهم في الكيمياء فاستفاد الأوروبيون منها استفادة كبيرة . ونقلت كتب الرازى كما نقلت كتب جابر بن حيان، ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المواد الكيمياوية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية . وللبيروني فضل السبق إلى درس السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال ويعتبر الرازى أول من وصف حامض الكبريتيك والكحول فقال ان الأول يستخرج بتحضير كبريت الحديد والناني يستخرج بتفطير المواد اللبية أو السكرية المختمرة . ويقول المستشرق الكبير "جوستاف لوبون" أنه لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات لما استطاع لا فوزيه –– أبو الكيمياء الحديثة – أن ينتهي إلى اكتشافاته .

وإذا كانت مدرسية سالرنو قد أصبحت أول جامعة للطب في أوربا فان الفضل يرجع إلى الطب العربي فيما أحرزته تلك المدرسة من شهرة نظرا لما كان يدرس فيها من علوم عربية و كان أطباء المسلمين يحضرون إليها من شتى البلاد الإسلامية لإلقاء المحاضرات فيها.

والطريف أن الأطباء العرب كانوا يرشدون إلى أنواع الغذاء التي

يجب أن يتبادلها الإنسان في الصحة والمرض فالرازي في كتاب و منافع الأغذية ودفع مضارها، بذكر كثيرا من ألوان الطعام وطرق عملها ومزايا أو مضار كل لون – وابن سينا ينصح بتعديل الطعام في كمية بحيث لا يزيد أو يقل عن اللازم – وينصح ابن سينا كذلك بعدم دخول الحمام دفعة واحدة والجسم مجهد أو الخروج منه دفعة واحدة نظرا لما تسببه الحالتان من نوازل و كذلك يرى عدم الإفراط في شرب الماء نظرا لما يسببه ذلك من عسر الهضم وتخفيف عصارة الكبد والعصارات المعدية.

وقد نصح الأطباء المسلمون بالاعتدال في تناول الطعام مخافة التخمة والمرض بل أن الرسول الكريم تنبه إلى ذلك قبل أربعة عشر قرنا مما جعله العلم الحديث في أوربا اليوم دستورا للعلاج فقال صلى الله عليه وسلم : (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وقال صلى الله عليه وسلم : " البطنة أصل الداء والحمية أصل كل دواء، وقال صلى الله عليه وسلم أيضا : ولا تشبعوا من الطعام ثم تأكلوا عليه فان ذلك أصل كل داء"

وقال عمر بن الخطاب : "إياكم والبطنة في الطعام والشراب فإنها مفيدة للجسم مورثة للسقم مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فانه أصلح للجسم وأبعد عن السرف ..، وقال عمر رضى الله عنه كذلك محذرا من أكتار أكل اللحم : "إياكم وهذه المجازر فان لها ضراوة كضراوة الحمر"، وغني عن البيان أن كثيرا من الأطباء ينصحون مرضاهم في بعض الأحوال المرضية بالامتناع عن تناول اللحوم لأن تناولها

يضاعف المرض ويفسد العلاج .

وقد حارب الاستلام المسكرات بكافة أنواعها وجاء العلم الحديث فآمن بهذه النظرية وارجع كثيرا من الأمراض مثل الطحال والكبد والمعدة إلى تناول الخمور والمشروبات الروحية .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذي عقد في مدينة (أنقرس) ببلجيكا كما أثبتت غيره من المؤتمرات التالية المنعقدة في السنوات التالية صدق الدعوة المحمدية وحكمة الإسلام في تحريم الخمر إذ وقف احد أعضاء المؤتمر الدولي وقال ان جزيرة أيسلندة – وهي من أشد البلدان بردا – كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات الروحية فكثرت بينهم الوفيات إلى حد أقلق بال ولاة أمورهم فألفوا الجنة لتبحث في الأمر وتتعرف أسبابه فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع إلى ان القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما يعجل بوفاتهم لانتهاء الحرارة تدريجيا من أجسامهم ؟

كما نهض عضو آخر من أعضاء هذا المؤتمر وذكر أن الدكتور سكوت ورفاقه حين ذهبوا في منطاد لارتياد القطب الجنوبي أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه بالا شربوا خير لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد إلا أن بعض رفاقه لم يستمعوا إلى نصيحته وتجرعوا بعض أقداح من الخمر فكانت النتيجة كما

دونها الدكتور سسكوت في مذكراته أن الذين أتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم .

وقد أنشأ العرب كثيرا من المستشفيات للعلاج وأملوها بكافة المعدات اللازمة للمرضى من أسرة وأدوات طبية وكانوا يسعفون الجرحى والغرقى بالعلاج ويعرفون وسائل تخفيف الحروق وما إليها وقد عرفوا الفرق بين الجرح البسيط والجرح الجسيم بما ورد ذكره في القرآن الكريم فهو يقول تعالى في كتابه العزيز : "إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب"

والحكمة في ذلك أن أعصاب الألم توجد في الطبقة الجلدية وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا بخلاف الحرق التسديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة لأنه مع شيدته وخطره لا يحدث ألا كثيرا فالله تعالى يقول لنا ان النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب تجدد، كى يستمر الألم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم.

وكان أبو القاسم الزهراوي في طليعة جراحي المسلمين وكانت تعاليمه ومعلوماته ووسائله وآلاته أساسا متينا بنيت عليه صروح الجراحة الحديثة، ويبدو أن أبا القاسم أول من ربط الشريان لإيقاف النزف بخيوط من الحرير، وأول من أنماط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء، وأوتار

العود . وأوصى بجعل الطرفين السفليين أعلى من الرأس حين إجراء العملية الجراحية على البطن فسبق بذلك العالم – تران دى لانبورغ – الذي اخترع الوصفة التي تحمل اسمه واشتهر من جراحي المسلمين كذلك مروان بن زهر وكان كتابه في الطب موضوع التدريس في مدرسة باريس الطبية ويقول البروفسور بوشو وان ابن زهر أول من أهتم بدرس العظام والكسور وقد أتيح التشريح . لان ما تركه من وصف الدمامل في الصدر وفي المعدة يدل دلالة صريحة على معرفته لعلم التشريح .

وقد استخدم بعض الأدوات الطبية التي تستخدم في الجراحة ومثال ذلك (كلية الأضراس، وكانت تقلع بها الأضراس ومكاوى الطحال والرأس والنشاب مجرفة الأذن وأوعية المراهم والمباضع ونحو ذلك.

واشتهر من أطباء العيون عند العرب أبو الفضائل بن الناقد وهو مؤلف كتاب و المجربات، وخليفة بن أبي المحاسن الحلبى الذي وضع كتاب (الكافي في الكحول و صلاح الدين بن يوسف الكحال"، وقد وضع مؤلفا في عشرة أجزاء أطلق عليه . نور العيون وجامع الفنون،.

ويبدو أن لقمان الحكيم قدم طبيب عربي اشتغل بأمراض الأسنان وجاء بعده جذيمة وكان الحارث وابنه النضر والتميمى ممن بحثوا في الأسنان وطبها في عهد الرسول وقد عني الإسلام بالفم وطهارته وبالأسنان ونظافتها والحديث الرسول الكريم يحث فيه على نظافة الأسنان ومسحها بالسواك عند كل صلاة . وعرف العرب شد الأسنان

بالذهب – وكان عثمان بن عفان ممن شدوا أسنانهم بخيوطه –– ومما يدل على اهتمام العرب بأسنانهم أن ثريا بنت علي بن عبد الله كانت تضع الخواتم في أصابعها العشر وقد صدمت بأحد خواتمها أسنانها فكسرت ثنيتاها العلويتان حتى كادت تخلعهما فنظم عمر بن أبي ربيعة بعض أبيات في هذا المعنى وقال :

ما بال سنيك أم ما بال كسرهما أهكذا كسرا في غير ما باس .

أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكأس

وقد تخصصت بعض الطبيبات عند العرب في أمراض النساء والولادة مثل أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها – وقد طار صتيتهما في آفاق الأندلس – وكانتا تعالجان نساء الملوك والوزراء.

أما الحميات فقد عرفها المسلمون وعملوا على علاجها وبرز أطباء عرب مسلمون في مداواتها ووضعها المتنبي في بعض أشعاره واكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيب الرئة والأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية وشرح الدورة الرئوية شرحا كافيا، ونفي الرأي القائل بأن القلب يتغذى من الدم الموجود في التجويف الأيمن، وكان اكتشاف ابن نفيس للدورة الدموية الصغرى قبل اكتشاف الأطباء الايطاليين لها بثلاثة قرون.

ويعتبر ابن الهيثم من أول العلماء الذين أشاروا إلى الحيوان المنوي مناهضا بذلك آراء أطباء عصره وعلماء زمانه، فقال أن النطفة تخرج من

جميع أجزاء البدن والحجة في ذلك مشابهة المولود للوالدين مشابهة كلية فدل ذلك على أن كل عضو أرسل إلى التكلفة قسطه ونصيبه ولو أن النطفة جسم واحد و متشابه في نفسه لما تولدت منه الأعضاء المختلفة لذلك سماها الله سلالة والسلالة على وزن فعالة، وهو ما يسل من البدن، ويقول ابن الهيثم عن النطفة أن فيها حيوانا صغيرا .

وأتقن العرب فحص البول وجلسوا له و كان يوحنا بن ما سوية المترجم لهارون الرشيد ذا دعابة وكان أطيب ما يكون مجلسه في وقت نظره في قوارير البول التي يسمونها . القسطرة، واشتهر أبو قريش عيسى طبيب المهدي بذلك، وقال أحد الشعراء في ثابت ابن قرة الطبيب، الذي اشتهر بفحص البول هذه الأبيات:

مثلــت لــه قــارورتي فــرأى بهــا | مـا أكـتن بـين جـوانحي وشـفافي
يبــدو لــه الــدواء الخفــي كمــا بــدا | للعـين رضـراض الغـدير الصــافي

" قال العلامة "جوتييه"، وللعرب في ميدان الاختراعات شيء لا بأس به بالنسبة لعصورهم وقد وجد في كتاب عربى قديم لم ينقل إلى اللغات الأوربية أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ولم تعرف أوربا سر الصناعة في النصف الأول من القرن السادس عشر وأدخلوا على أوربا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن وكان الناس من قبل يكتبون على البردي وهو غال جدا، وكانت معامل شاطبة في أسبانيا تصدر بضاعة الورق إلى أوربا الغربية على حين كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة . وأضاف جوتييه إلى ذلك

قوله : « ان العرب علمونا صنيع الكتاب وصنع البارود وعمل إبرة السفينة فعلينا أن تفكر ما إذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلت إلينا من المدنية العربية.

عرف العرب آلة الظل والمرايا المحرفة بالدوائر والمرايا المحرفة بالقطوع وقطعوا شوطا كبيرا في الميكانيكيات، ولما بعث الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الكبيرة إلى شارلمان تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حققه ذلك "سيديليو" ومع ذلك لم يكن في عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة وأظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الغرس وأزهار أقليم مازندران وقال شارل سنيوبوس Charles Saignobos تاريخ الحضارة أن أمراء العرب جروا على عادة إسقاء الأرض بفتح الترع سـے فحفروا الآبار وجازوا بالمال الكثير من عثروا على ينابيع جديدة ووضعوا المصطلحات التوزيع المياه بين الجيران ونظم العرب ديوان المياه الذي كان يرجع إليه في مسائل الري . وليس من شك في أن هذه الأساليب التي استخدمها العرب من أول الوسائل التي يعتمد عليها أهل الغرب في تنظيم هذا المرفق الحيوي من مرافق الحياة وذكر «ريسون» أن العرب أحرزوا فضل السبق دون غيرهم في مضمار التجارة ورقوا الصناعات البحرية ووضعوا قوانين حقوق الملاحة وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر وشرحوا الكفالة وأنشئوا المصارف للفقراء .. ويضيق العالم «ريسون» قوله :

" وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ويعمرون المرافئ

والفرضيات ويصلحون الفنادق والرباطات – ويرتبون سير القوافل وكانت المدن الإسلامية أوساطا تجارية كبرى . وكان أهل بيزا الايطاليون ينزلون مدينة «بجاية» في الجزائر حيث يتعلمون صنع الشمع ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوربا.

ويقول العلامة سنيو بوسى : « وكان عبد الرحمن الثالث الأموي على اتصال دائم بأمراء أسبانيا وفرنسا وألمانيا وممالك الصقالبة – وكان القصر الملوك في "تولوزة" من بلاد فرنسا صورة من صور قصور الخلافة في قرطبة يتبارى فيه الشعراء و تقوم فيه للآداب سوق، ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا عام ٩٩٩ ما دخل ما أخذ عن العرب من فنون الحضارة وفي الحروب الصليبية تعلم الفرنسيس صنع الورق من دمشق من أسيرين قضيا زمنا في هذه المدينة فلما عادا إلى بلادهما نشر فيها هذه الصناعة ونبغ العرب في ميدان الرياضيات كذلك. وكانوا أول من تنبه إلى لفظ "صفر" التي كان لها أثر كبير في الميدان الرياضي – ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا في القرن الثاني عشر وأشهر رياضي هو الخوارزمية التي عاش في القرن الحادي عشر واقتبس الغربيون كثيرا من نظرياته وقواعده وأشهر مصنفاته الحساب والجبر وقد نقل إلى اللغة اللاتينية و قال ابر : " آن فكرة الصفر في صفر لحاتم جاء فيه :

ترى أن ما أهلكت لم يكن خدني .. وأن يدرى مما تجلت به صفر

أما في الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتاب اقليدس (أبو كليد) في الهندسية وهذه الترجمة هي التي نقلها الأوروبيون إلى اللاتينية

في القرن الثاني عشر وقد أضاف السرب إلى علم الإغريق في هذين الميدانين إضافات كثيرة وتعمقوا في أبحاث المخروطات وحساب المثلثات و كتب ابن الهيثم رسالة أطلق عليها و شكل بنى موسى، وكتب البيروني كتابا في استخراج الأوتار من الدوائر .

وقد عمل بعض المهندسين العرب في هندسة كنيسة "نوتردام دى بارى"، المشهورة في باريس، ان من يلقي نظرة على المساجد والقصور وعلى غيرها من الآثار العربية من منقولها وغير منقولها يشهدانها نسجت على غير مثال وان الإبداع ظاهر محسوس . وقد استخدم المهندسون العرب في صنيعها كل ملكاتهم الفنية ومواهبهم الرفيعة . وقد قال : "همبولد" في معرض حديثه عن الحضارة العربية : « أن العرب بلغوا في العلم العملي درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء."

وقد أوحي الصناع المسلمون إلى صناع الغرب طريقة جديدة في زخرفة جلود الكتب ففي العصور الوسطى كان المجلدون الأوروبيون غالبا ما يزخرفون جلود الكتب بطبع رسم عليها مستعينين في ذلك بمكابس معدنية وقد تيسر بهذه الطريقة الوصول إلى موضوعات زخرفية جليلة الأثر فبعد أن كبرت الملابس وزادت زخارفها كمالا وإبداعا شاع استعمال زخارف دقيقة الم نبع وفيها حافات (كنارات) ورسوم متكررة وتسمى زخرفة غسلاف الكتب برسوم مطبوعة بالات محماة."

كانت الزخارف التي تصنع بهذه الطريقة بارزة فقط حتى بدأ الصناع

العرب يزينون الرسوم المطبوعة بملء أجزائها المنخفضة بصبغات ذهبية وقد دخل هذه الطريقة إلى أوربا المجلدون المسلمون الذين أقاموا في البندقية وقد أثر العرب في فن التصوير في أوربا فظهرت الصور المعممة والوجوه ذات السمة الشرقية في الصور الايطالية منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر وظهر التأثر بالشرق كذلك في رسم السجاجيد القارسية والمنسوجات والملابس الشرقية كما يبدو هذا التأثر في إدخال الحيوانات غير المعروفة في الغرب مثل الفهد والقردة والببغاوات وكذلك في رسم المناظر الطبيعية وأنواع النبات الموجودة في الشرق عند العرب بل أنهم أدخلوا إلى أوربا عن طريق أسبانيا والبرتغال القطن والمشمش والكوسا والفاصوليا، وقصب السكر والزيتون والبطيخ الأصفر – النمس، والياسمين كما تعلموا من العرب بعض فنون الري.

أما السجاد الذي يعتبر الآن شيئا لا غنى عنه فقد جاء إلى أوربا من الشرق وكان من الكماليات التي لا يحصل عليها غير الأغنياء الملمس والموسرين – والسجاد قديم جدا في الشرق سواء منه الناعم الملمس الذي يشبه نسيج التباستري Lapeatry أو النوع أو النوع في الخيوط الرخوة المعتادة في النسيج – والتي ينتج منها سطع له وبر يشبه القطيفة . وتدل رسوم السجاد الشرقي في الصور الايطالية على أنه كان معروفا في أوربا منذ القرن الرابع عشر على أقل تقدير، وفي القرن السادس عشر أصبح السجاد سلعة غاوية في الأسواق الأوربية.

وبرع العرب في الجغرافيا . وأشهر جغرافيين العرب ، الاداريس –

وقد نقل ما ألفه في الجغرافيا إلى اللغة اللاتينية . وقد تعلمت أوربا علم الجغرافيا منه في القرون الوسطى وخريطة الاداريس المحتوية على منابع النيل والبحيرات الاستوائية التي لم يكتشفها الأوروبيون إلا في العصور الحديثة من أبرع الخرائط الجغرافية وهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية افريقية أعظم مما كان يظن كما برع في علم الجغرافيا القزوينى و ياقوت الحموى وقد عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد وكتاب "معجم البلدان" الياقوت الحموي هو معجم جغرافي كبير بأسماء بلاد الإسلام . وقد ذكر أبو الفدا (١٢٧١ - ١٣٣١ م) العالم العربي الجغرافي أسماء ستين عالما جغرافيا مشهورا من الذين ظهروا قبله .

ويعتبر القزويني المتوفى عام ١٢٣٨ م من أبرع علماء العرب في التاريخ الطبيعي حتى أنه لقب (بلين) المشارقة وأنت طريقة القزويني قائمة على الوصف كما صنع بعده بوفون، وقد حلل بعض علماء الغرب أسباب التضاريس وتعرضوا لأسباب وجود الجبال والوهاد، والمرتفعات والمنخفضات على النحو الذي لجأ إليه علماء الغرب فيما بعد ومن ذلك ما أشار اليه ابن سينا في حديثه عن منشأ الجبال إذ يقول أن الجبال أما تكون قد نشأت عن ارتفاع في قشرة الأرض بفعل إحدى الزلازل الشديدة مثلا وأما أن تكون قد نشأت عن أحداث المياه مع الزمن، للأودية نتجتها الصخور اللينة وبقاء الصخور الصلبة قائمة - ويستدل ابن سينا على هذا بما يشاهد على اكتر الصخور من آثار الحيوانات المائية وغيرها .. وعند ابن سينا أن النباتات المنحلة والأوحال التي تأتي بها المياه هي مصدر ما يرى على الجبال من التراب.

وقد قال مسيو رينان : « أن ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد .»

ولم يظهر في أوربا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يكتف بما في كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون وليونارد البيزى وريمون لول وسبان توما . و كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوربا نحو ستة قرون، ونظام المعيدين المعمول به الآن في مختلف جامعات العالم الحديثة عرفه العرب من قبل في مدارس هم وجامعاتهم، فكانوا يعينون معبدا لكل مدرس حتى يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح . وقد ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام أن وظيفة المدرس كانت من أبرز الوظائف في الدولة الإسلامية وكان السلطان يخلع على صاحبها كما يكتبه له توقيعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس – وقد أصبحت وظيفة المدرس في الجامعة موضع الإجلال والإكبار في أوربا بعد ذلك . وان الكتاب الأوربيين يقررون في أكثر كتبهم ما امتازت به الجامعة الأوروبية الناشئة في العصور الوسطى من تقدير المكانة المدرس الجامعي :

ومن المعروف من نظم التعليم الإسلامية أن الطالب كان إذا أتم دراسته وتأهل للإفتاء والتدريس أجاز له أستاذه ذلك وكتب ! أجازة يذكر فيها اسمه واسم شيخه ومذهبه وتاريخ الأجازة ولعل الجامعات الأوروبية التي نشطته في أواخر القرن الثاني عشر أخذت هذا النظام الإسلامي

وقررت منح الطالب ترخيص التدريس وكانوا يسمونه Licentia d eniri وهو يشبه إلى حد بعيد ذلك الترخيص الذي كان يمنحه الشيخ لتلميذه في العصور الإسلامية .

واشتهر في القرن العاشر الفلكي ابن يوسف الذي اخترعى جهازا لقياس ارتفاع الشمس وفي القرن الحادي عشر اشتهر أبو العباس الفرغاني بأبحاثه القيمة عن الكواكب والأبراج كما اخترع ابن الزركلي الآلة التي تحدد مكان الكواكب وارتفاعها وقد سماها « الصفيحة » وعمل علماء الغرب على تحسين هذا الاختراع الخامس عشر، وكان الفلكي أبو عبد الله محمد الباتانى قد فسر عام ٨٢٩ هـ بعض الظواهر الطبيعية الغامضة مثل الكسوف والخسوف وتعاقب الفصول واكتشف حركات النجوم والقمر وحدد مواقع الكواكب والأبراج بدقة مدهشة أثارت أعجاب العالم الغربي رنجو مونتانوس في القرن الخامس عشر : ومن الطريف أن نذكر أن عالما عربيا هو قطب الدين الشيرازى. المتوفي عام ١٣١١م استطاع أن يعلل قوس قزح تعليلا صحيحا فقال : « ينشأ قوس قزح من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو عند سقوط الأمطار وحينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا وبعد ذلك تخرج إلى عين الرائي .

وكان العرب أول من وصل إلى اكتشاف نسب حقيقية بين وزن الأجسام المختلفة مع فقدان الآلات التي تسهل عليهم هذه المهمة . فنجد البيروني المتوفي نحو ١٠٤٨م يستخرج الثقل النوعي للأجسام

بأن يزن الجسم ذاته في الهواء ثم يزن الجسم ذاته في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب على علو معين وبعدئذ يزن الماء الذي فاض من الوعاء بسبب إدخال الجسم فيه، ومن كمية الماء الفائضة كان يعرف حجم الجسم ثم يقسم وزن الجسم في الهواء على وزن الماء الفائض، فيجسد الثقل. النوعي لمادة الجسم الموزون .

وقد وصل ابن الهيثم في القرن الحادي عشر للميلاد يعلم البصريات إلي أبعد درجات التقدم وقد أخذ كبلر Kepler منه معلوماته في الضوء ولاسيما ما يتعلق بالانكسار الضوئي في الجو و قال عنه المؤرخ سارتون Sartan أن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين في العالم .

ولابن الهيثم بحوث وافية في قوي تكبير العدسات ويرى كثيرون أن ما كتبه في هذا الصدد مهد السبيل الاستعمال العدسات في إصلاح عيوب العين .

وقد استخدم العرب البوصلة – وساهموا في اختراعها واختراع الإبرة الممغنطة ومن الألفاظ التي استعملها العرب ونقلت إلى اللغات الأجنبية كلمة « الفلائك » جمع فلوكة وقد اطلق عليها الفرنسيون Filangue وأطلق عليها الايطاليون Fleuca وكلمة الشباك التي أطلق عليها الفرنسيون Chebec كما أطلق عليها الإيطاليون Scilecco.

وفي القرن الثالث عشر استخدم المسلمون العرب الورق العربي من وادي قشطالة ومن ثم انتقل إلى فرنسا وايطالية وانجلترا . ويشهد للعرب على علو كعبهم في هذا المضمار ما تركوه من مخطوطات نفيسة على ورق صقيل في غاية الروعة والجمال .

ويقال أن العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسا وذلك لأنهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد الأصيلة لشن الغارات فبقي جنسها في فرنسا منذ ذلك الوقت، ولا يزال حتى الآن هناك أجناس من الخيول العربية في جنوب فرنسا، بل لقد شاعت بعض الرقصات العربية في هذه المناطق، ويقال أن العرب الذين نزلوا في « بروفانس » هم الذين بدءوا

في استثمار شجرة البلوط ولا تزال هناك غابة تسمى « غابة المغاربية » وقد ذكر « ريساس » في كتابه « المنتخبات العربية » أن ملوك أوربا كانوا يستخدمون ملابس عربية وقال إننا نعرف منسوجات كثيرة من منتجات العرب من النو ع الذي يسميه ابن خلدون "الطراز" وأول ما أذكره "الطيلسان" الذي كان يرتديه قياصرة ألمانيا في تتويجهم فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابات عربية منسوجة بخيوط الذهب.

وقد ظهر أثر المسلمين في الأدب الأوربي واضحا جليا ونخص بالذكر « بوكاشيو » و « دانتى » و « بترارك » الإيطاليين، و "تشوسر"، الانجليزى و " سرفانتيز" الأسباني وفي عام ١٣٤٩م كتب "بوكاشيو" حكاياته المسماة « الصباحات العشرة »، وحذا فيها حذو ألف ليلة

وليلة التي كانت شائعة في هذه الفترة من التاريخ وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات الليالي العربية، اقتبس منها « ليسنج » الألماني إحدى مسرحياته وهي « ناتان الحكيم » .

وألف « تشوسر » قصص كانتربري على غرار هذه القصص ومنها قصة السيدة التي استمدها من ألف ليلة وليلة العربية .

وربما كانت صلة «دانتي» بالعربية أعظم من صلة «بوكاشيو » و « تشوسر » فقد عقد بعض المستشرقين مقارنات بين الجحيم عند « دانتى » ووصف النار في « رسالة الغفران » عند أبي العلاء المعرى . ومن يقرأ كتاب « سرفانتيز » المعروف «دون كيشوت» لا يداخله الشك في أنه تأثر بالثقافة العربية التي كانت شائعة في عصره .

وظهرت في الأدب الفرنسي قصص تحمل الطابع العربي ومن أشهرها قصة «أوقاسين ونيقوليت» Aucassin etpicolette واسم البطل « أوقاسين » ما هو ألا تحريف للاسم العربي «قاسم » وترجمت قصص « كليلة ودمنة » إلى الإسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر، تم ترجمته إلى الفرنسية ويجد بعض النقاد مشابه شتى بين هذه القصص و خرافات لافونتين، في الأدب الفرنسي.

وفي الأدب الأوربي الحديث ظهرت آثار المسلمين واضحة جلية كذلك فهذا هو « لورد برون » زعيم الحركة الرومانتيكية في الأدب الإنجليزى – ينظم قصيدة رائعة عن «روح الإسلام . كما رحل الشاعر

الفرنسي الرومانسي « لامارتين، إلى الشرق، واستوحي بعض قصائده . من سحر الشرق ونظم الشاعر الألماني پر جوته » ديوانا برمته من الشرق أطلق عليه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » كما أن الشاعر « هاينى » – شاعر العذاب والإبداع – استوحي الشرق في بعض قصائده، وهنالك مسرحية انجليزية بعنوان « حسن » (Hassan) ألفها الشاعر الانجليزي الكبير « جيمس الورى فلكر » صاحب ديوان « جسر النار » ولا شك أنها مستمدة من سحر الشرق وأسماء العرب.

ويقول المستشرق الكبير « هاملتون جب » في كتاب « تراث الإسلام » أنه ليس من الغلو في شيء أنه لولا كتاب « ألف ليلة وليلة » لم استطلاع « دانيل ديفو » أن دو لفي رحلة

« رسالة حي بن يقظان » لابن طفيل وقد ترجم هذا الكتاب عن العربية في القرن السابع عشر من الميلاد .

ويقول الدكتور جب كذلك : أن « ألف ليلة وليلة » كانت من العوامل التي دفعت « سويفت » إلى كتابة « رحلات جليفر » المتهورة .

وقد أثر الأدب العربي في أسبانيا في الشعر الغنائي الأوربي تأثيرا كبيرا سواء أكان ذلك في الشعر المكتوب باللغة الأوربية الرفيعة أم باللغة الشعبية الدارجة . وقد وجد الباحثون كثيرا من وجود الشبه بين الأغنية الشعبية عند العرب والأغنية الشعبية عن الإفرنج واستدلوا على ذلك من وجود (الخرجة) وهي بيتان تنتهى بهما الأغنية ولعل أول من

تنبه إلى هذا الشبه بين الشعر الشعبي الأندلسي وأغاني التروبادور في العصور الوسطى هو المستشرق الأسباني (دون خوليان ريبيرا) وقد أدرك أن هناك مشابه شتي في الصياغة بل في الموضوعات التي تقوم عليها الأغاني. بين الشعر الأندلسي وشعراء التروبادور بل أن بعض الباحثين يعتقد أن كلمة تروبادور مستقاة من كلمة (طرب) العربية.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية في أوربا عند عقد المقارنة بين الآثار العربية في المشرق والمغرب ولا بد من الاعتراف بأن بعض الآلات الموسيقية التي ش اع استخدامها في أوربا قد، أخذت عن العرب وبعضها – مثل العود . لا يزال يسمي باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية وشاعت أحوال الحضارة العربية في أوربا وتفشت في شتى المجتمعات سواء كان ذلك من طريق المعاشرة أم الإتباع في الحكم أم تبادل المتاجر . ومن الأسماء ذات الأصول العربية في مظاهر تلك الحضارة كلمات :

قطن Cotton الزعفران Saf fran الحرير الموصلي «الموسلين» Muslim الجرة Jar الحية Jupe الصفة (المعقد الطويل) Sofa المسك Musk الأرز Rice العطر ffttard الليمون Lemnon القهوة Coffee السكر Sogar.

وغير ذلك من الأسماء ذات الأصول العربية لم يقتصر الأمر على دخول هذه الأسماء إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية بل دخل

إلى اللغتين الأسبانية والبرتغالية ألفاظ يضيق بها الحصر.

وقد أصدر الدكتور « وينر » – الأستاذ بجامعة هارفرد – مجلدين ضخمين حاول أن يثبت فيهما أن الحضارة الأوروبية ذات أصول عربيه ورد اشتقاق كثير من الكلمات في اللغات الأوربية إلى مصدر عربى .

وأشار الأستاذ "نيكلسون" في كتاب "تراث الإسلام" – إلي المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين مثل « اكسهارت » الألماني والمحدثين مثل « ادوارد كاربنتر » الانجليزي .

وكان اكسهارت بنادى كما ينادى ابن العربى – بأن الله هو الموجود الحق ولا موجود سواه، وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء ولا سيما روح الإنسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة والأجزاء بالكل والأعضاء بالأجسام.

ويرى الأستاذ « آسين بلاسيوس » الأسباني أن نزعات « دانتي » الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مأخوذة من محيي الدين ابن عربى بغير تعرف كثير .

وقد نقل الأوروبيون من الشرق الأرقام الهندية وكانوا يستعملون من قبل الأرقام اللاتينية وهي – من حيث تعقدها وضخامتها . لا يمكنها أن تخدم العلم الحديث .

ويقول المستشرق « ليبرى »: أن العرب إذا استحقوا الخلود فإنهم يستحقونه غالبا لأنهم حفظوا كثيرا من الثقافات الإغريقية، إلى جانب ثقافتهم العريقة في وقت كانت فيه أوربا تتخبط في ظلمات يموج بعضها فوق بعض.

وبرع المسلمون في التجارة براعة عظيمة ومن الأقوال المأثورة في التجارة قول القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم . وقوله تعالى : "أحل الله البيع وحرم الربا" . ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أملق تاجر صدوق، وما أقفر بيت فيه خل، و : أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، والكسب هو التجارة ». و « تسعة أعشار الرزق في التجارة» وفي الحديث عن قيس بن أبي عروة : « كنا نسمى (السماسرة) فسمانا النبي صلعم بأحسن منه فقال : « يا معشر التجار » .

وكان العرب يتاجرون مع الهند والصين لقربهم منها كما اتجروا مع البعيدين عنهم وفي زمن الخلفاء الراشدين سافر ابن عبد الوهاب وكثيرون غيره من البصرة إلى بلاد الصين وعام ٢٣هـ (٦٤٣ م) كتبا عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد فتحه مصر : ان الغلاء قد وقع بالمدينة وان الناس في جهد من الغلاء، فبعث عمرو بجمال موقرة أولها الإسكندرية وآخرها بالمدينة.

قال « فكتب عمر إلى عمرو « بان يحفر خليجا يحمل فيه الغلال

إلى القلزم (البحر الأحمر) ومن القلزم إلى المدينة في البحر المالح فحفر عمرو الخليج المعروف (بخليج أمير المؤمنين) وكانت المراكب تحمل الغلال من الإسكندرية إلى القلزم في الخليج ومن القلزم إلى المدينة في البحر المالح .

وكان الخلفاء الراشدون والصحابة ومن والاهم أصحاب أعمال تجارية، أبو بكر الصديق بزازا ومثله كل من عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف – وكان عمر بن الخطاب، دلالا أو تاجرا وأبو سفيان بن حرب بياعا وعبد الله بن جدعان نحاسا ونحو ذلك.

وقد وصلت تجارة المسلمين بالطرق البرية والبحرية إلى جهات نائية في العالم، ووصلوا إلى شمال أوربا بتجارتهم كما دلت النقود التي تركوها في تلك الأصقاع الشاسعة – والخطوط الكوفية ونحوها وكانت البضائع التي يتناولها المسلمون من شمالى أوربا كثيرة منها المعدن ولا سيما القصدير والفرو والعنبر ويأخذ الدمنكريون مقابلها من المسلمين أنواع الأقمشة والسجاد الترقي النفيس، والأباريق المحلاة بروائع النقوش والحلي النفيسة .

كما وصلت تجارة المسلمين إلى الصين واليابان والملايو وجزر المحيط الهندي وجزر المحيط الهادي، وكانت لهم مع هذه البلاد معاهدات تجارية مختلفة، واستخدم المسلمون ألمراكب المتنوعة في الأسفار البحرية، والقوافل التجارية في الطرق البرية .

وهكذا كان فضل العرب على الحضارة الأوروبية ممتدا إلى. شتى بلدان أوربا في مختلف العلوم والفنون والحرف والصناعات والعلب والاختراعات و يقول المؤرخ الفرنسي ليبريه : « ان العرب إذا استحقوا التمجيد فإنما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الإغريقية والهندية طوال عصور كفت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئا وكانت أوربا ما تزال في جهالتها عاجزة عن أن تحمل الأمانة.

ويمكن القارئ ان يتمثل نفوذ العرب في أوربا من الاجتماع الصاخب الذي قال فيه بترارك يا عجبا استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموسنين، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس فهل قدر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب، وسبقناها في بعض الأحيان، حاشا العرب ! فيا الحماقة ويا للضلال ! »

وقد توغل اثر حضارة الإسلام في أوربا حتى مازج النفوس وخالط انطباع . وفي ذلك يقول العلامة " بارتلمس سان هيلا ". لقد هذبته طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة الغليظة في القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب، وتقليدهم لهم ولقد تعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطباع وحسن.

الأخلاق من العرب دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم – وانى الأشك في أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل هذا التأثير مهما يبالغ في كرمها »

وقد عمل الإسلام على حماية المرأة وكان أول دين احترمها واجلها وكان الإغريق يعدون المرأة من المخلوقات النحلة التي لا تنفع لغير دوام النسل

وتدبير شئون المنزل، وكانت المرأة التي لا تضع ولدا قويا صالحا للجندية تقتل، وكانت تؤخذ المرأة الولود من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولادا من رجل آخر فأعطى الإسلام للمرأة حقا في الوراثة وعاملها معاملة كريمة وأخذ الغرب عن المسلمين ومبادىء الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة . إذ أعطى الإسلام المرأة حقوقها الطبيعية وأحلها في المجتمع محلا كريما، وجعلها في مكان لائق يناسب وظيفتها التي هيأها الله لها . ليتم للإنسان جميع عوامل التكمل والوصول إلى ابعد غايات الرقي الاجتماعي .

فالمرأة والرجل في الإسلام عنوان متكاملان خلقا ليؤلفا الأسرة ويعيشا على أكمل حال من المودة والتراحم فقال تعالى : " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ".

وهي في الإسلام صنو الرجل في المسئولية لها ما للرجل وعليها ما عليه فهي في الدنيا لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وفي الآخرة لها درجات المتقين أو الأشرار المفسدين فقال عز وجل: "من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون".

وقد روى في الصحيح أن النساء اجتمعن مرة وقلن للرسول صلى الله عليه وسلم "غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك " .. فجعل لهن يوما يفقههن فيه، فوعظهن وأمرهن.

وهذا الحديث يشهد بعلو منزلة المرأة في الإسلام حتى انه كفل لها حق الاجتماع للتشاور وتبادل الرأي، ووجوه النظر، وهذه مرتبة رفيعة يحق للمرأة العربية أن تزهو بها وتفاخر قبل أن تطلق السيدات النسائية في أوربا مطالبه

بالحقوق النسائية، والمساواة في مثل هذه الحريات بالرجال . بل ان الإسلام كفل للمراد حق المبايعة فهي لا تنقص عن الرجال في ذلك شيئا . وأمر الله تعالى رسوله بقبول مبايعة النساء إذا أتينه فقال تعالى :

« يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بهتان يقدر ينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله، أن الله غفور رحيم » .

فهذه حقوق تمتعت بها المرأة المسلمة منذ صدر الإسلام في الوقت الذي كانت فيه المرأة الغربية بسلعة تباع وتشترى وكما مهمة لا قدر له ونمن، وليس من شك في أن المفكرين الأوروبيين الذين أطلعوا على حضارة الإسلام فوضعوا الحالات وعقدوا المقارنات سروا أيما سرور من منزلة المرأة في الإسلام حتى قال جوستاف ليبون في معرض حديثه عن حضارة العرب « أن الإسلام كان أول دين احترم المرأة وأجلها » .

وهكذا شهد شاهد من أهلها .. ومن هنا يتضح لنا أن الإسلام كان يمتاز بالحضارة الواسعة تضم بين رحابها شتى المعارف والعلوم والفنون ومختلف ضروب المعارف، بل مختلف العادات والتقاليد والدعوات التحريرية الكبرى، التي كان لها أصداء متجاوبة في آفاق العالم الفسيحة.

الفصل الرابع

الصحافة العربية في أوروبا ودورها في خدمة المجتمع الغربي

تعتبر الصحافة مرآة لحضارة الأمة وتقدمها، وقد قامت بدور كبير في نشر الحضارة العربية في، تي الأقطار والأمصار وكانت أبواقا معبرة عن رغبات هذه الأمة، وصيحة مدوية للمناداة بمطالبها وصورة ناطقة لآلامها وآمالها، ولذلك أجمع المفكرون جميعا على قوة الصحافة وعلو رسالتها، وسمو أهدافها فقال نابليون الأول : أنني أوجس خيفة من ثلاث جرائد أكثر مما أوجس من مائة ألف مقاتل كما قال وليم ستيد : «الكاتب السياسى يرتعد من منظره رئيس مجمع الشياطين »

وهذه الأقوال تدل دلالة واضحة على قدرة الصحافة على السيطرة على الرأي العام، وتحريك دفة الشعب، فيفضل الصحافة استطاع الحكام أن يسيطروا على أزمة الأمور في البلاد، وبفضل الصحافة يستطيع الدعاة أن ينشروا مبادئهم ويبثوا أفكارهم ويعلنوا آراءهم فهي وسيلة قوية من وسائل الإعلام لها خطرها ولها أثرها في المجتمع وهي الصلة بين الزعماء والشعب وفي هذا يقول الصحفي الراحل أنطون الجميل : كان حامل القلم كحامل السيف في يمين كلبهما سلاح ماض وأصبح حامل القدم في العصر الحديث كالقابض على الصولجان، كلاهما نافذ الكلمة مرعي الجانب، ولكن ذلك لا يتم للكاتب إلا إذا

فهم حقيقة مهمته، وأدرك شرف مهنته، فإذا لم يكن كل من هز الحسام بضارب، فكذلك ليس كل من هز اليراع بكاتب.

وأبعد حملة الأقلام نفوذا الآن هم الصحفيون بفصل انتشار الصحف وإقبال الكبير والصغير عليها، وعليه يجب أن تكون الصحافة – كما قال أحد كبار المفكرين – شجرة الحقيقة يغرد على أفنانها الكتاب الصادقون.

وقد حاولت الصحافة العربية منذ مطلعها أن تكون صورة صادقة لآمال وآلام الأمة العربية، و منبرا صادقا للرأي الحر والفكر النير، فنجحت في بعض الفترات، في حين لم تنجح في الفترات الأخرى أن تصل إلى هذا الهدف فظلت تحت سيطرة المتحكمين وسطوة المتسلطين الذين حاولوا أن يشتروا الذمم والضمائر سواء أكانوا من رواد الاستعمار أم من أذناب الاستعمار، فأتيح لهم أن يضموا إلى جانبهم أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة، على حين رفض أنصار الحرية أن يخضعوا لنفوذهم أو يخنعوا لسلطانهم.

وقد انطلقت شرارات متألقة من الشرق العربي إلى كافة أنحاء العالم وفي أوربا وأمريكا لنشر اللغة العربية والفكر العربي، ولتكون لسان صدق عن رغبات العرب ومناط عذاب على المستعمرين والمستبدين، وكانت هذه الشرارات صحفا مطبوعة تحمل الثقافة العربية والعقلية العربية، والفكر العربي، والمجد العربي !

فمن الصحف العربية التي ظهرت في أوربا صحيفة "آل سام" التي أصدرها الكاتب الأديب "رزق الله حسون" وكان يتولى بنفسه صف حروفها وطبعها في داره في قرية واندزورث وكان يهدف إلى استثارة الرأي العام الأوربي ضد حكم الأتراك للتخلص من استبدادهم في الشرق العربي.

وصدرت صحيفة "مرآة الأحوال" عقب احتجاب صحيفة و آله سام، وكان يشترك في تحريرها الدكتور لويس صابونجى وكانت شديدة النقد للحكم التركي والاستبداد السلطاني، واستطاعت أن تتغلغل إلى جنبات العالم العربي غير أن المسئولين لم يلبثوا أن أوقفوا إصدارها .

وفي عام ١٨٧٩ أصدر رزق الله حسون نشرة نصف شهرية أطلق عليها "حل المسألتين الشرقية والمصرية " ومن أجل البحث في سياسة مصر خصوصا والشرق الأوسط عموما . وفي عام ١٨٨٠ أصدر الدكتور لويس صابونجي بعد وفاة زميله رزق الله حسون صحيفة عربية في انجلترا أطلق عليها « الخلافة » وجعل شعارها "حرية واستقلال ونجاح وإقبال" وقد قامت هذه الصحيفة بدور كبير في إثارة الرأي العام ضد الحكم التركي والطغيان الحميدي، وكانت مقالاتها تحمل طابع الحماسة المتدفقة والشعور المتأجج والمناداة بالتخلص من الحكم العثماني بشتى الطرق ومختلف الذرائع وتحرير الوطن العربي من هذه العناصر الهدامة حتى يأخذ سمته وطريقة في سبيل الحرية والتقدم .

ومن أروع مقالات هذه الصحيفة مقالة. حي على الاستقلال هـ

ومقالة أيها الأبطال، وقد حاول الأتراك أن يؤثروا على صاحبها الإيقاف إصدارها، وتدخلت السلطات البريطانية لمصلحة الأتراك بيد أن الدكتور لويس صابونجي رفض في شدة أن يستجيب لرأى الأتراك رغم الوعود الخلابة، والأموال الطائلة التي وعده بها عملاء الأتراك العثمانيين وأنصار الاستعمار في بريطانيا.

ولما اضطر لويس صابونجي إلى إغلاق صحيفته تحت تأثير السلطات الحاكمة في انجلترا، وبدافع تهدد البريطانيين اصدر صحيفة أخرى تحمل عنوان "الاتحاد العربي" وكانت هذه الصحيفة ترمي إلى وربط الشعوب التي تنطق باللغة العربية حتى يكون لها كيان واحد مستقل، وقد أقلقت هذه الصحيفة مضاجع البريطانيين وغيرهم من أعوان الاستعمار فعملوا جاهدين على إيقافها بعد ما تبين لهم الخطر الجسيم الذي يهددهم من جراء تكتل الأمة العربية واتحاد العرب وانطلاق تيار القومية العربية، فأغلقت هذه الصحيفة بعد ثلاثة أعداد من صدورها.

وفي عام ١٨٨٤ عاد لويس صابونجي فأصدر في انجلترا صحيفة و النحلة، عالج فيها المسألة المصرية السودانية في صراحة تامة، وأسلوب أمين .

ولما ضعفت صحة لويس صابونجي غادر انجلترا إلى لوسى انجلوس في كاليفورنيا المالية – وهناك اغماله بد أنيمة وكان يبلغ في ذاك الوقت الثانية والتسعين من عمره .

وفي عام ١٨٩٢ أصدر في لندن حبيب سلمونى اللبناني صحيفة عربية أطلق عليها و ضياء الخافقين، وكانت صحيفة أدبية ممتعة حملت الثقافة العربية إلى الغرب واطلعت الغربيين على صفحات مشرقة من الأدب العربي الدفين، تم أصدر "سليم سركيس" في لندن صحيفة رجع الصدى الذي نشر فيها كتابا إلى السلطان عبد الحميد جاء فيه ولم يبق من عمري إلا أيام وساعات معدودة .. وأريد أن أبسط أمام عرشكم آرائى الأخيرة وهي آراء محزنة اتضحت لي بعد خبرة طويلة تاعسة"

وكانت هذه الصحيفة تجمل طابع الصراحة التامة والدفاع الصادق عن العرب والعروبة، ومبادىء الحرية والاستقلال وعدم السيطرة أو الاستغلال في أرجاء الوطن العربي.

على أن يعقوب صنوع قام بدور كبير في نشر الصحافة العربية والدفاع عن القضايا العربية في باريس، وبرغم أن صحفه كانت تحمل طابع السخرية والدعاية بيد أنها كانت سخرية مريرة، ودعابة قاسية تصل إلى أغوار المجتمع العربي، و يوضح أدواءه الخفية وعيوبه ومثالبه، وتحاول تخليصه من التقاليد القديمة البالية .

وقد أهدى السيد جمال الدين الأفغاني إلى يعقوب بن صوع صورته بعد أن وقع عليها بخط يده تقديرا لهذه الجهود التي يقوم بها في خدمة القضية العربية.

وقد صدر العدد الأول من مجلة أبو نظارة في ٢١ ربيع الأول سنة

١٢٩٥ بمدينة القاهرة وكان اسمها « أبو نظارة زرقاء، وتحت هذه العبارة كتبت جريدة "مسليات ومضحكات".

وقد خاضت هذه الصحيفة في كثير من مشاكل مصر والمجتمع العربي ولم يتورع عن مهاجمة الموظفين الفرنجة و الأتراك بل لم يخش مهاجمة الأمراء والوزراء بل لم يهب أن يهاجم الخديو نفسه بأسلوبه قاس عنيف وشرع. يهاجمه تحت اسم محجب هو "شيخ الحارة" ويمثل الظلم والجور والطغيان والاستبداد، ويقول فيه على لسان الحدق كلاما يبعث على النورة ويدعو الى الانقلاب ومنال ذلك قوله . وساكتين عليه ليه، اشتكره، وقدموا فيه عرض حالات الشيخ التمن اللي هو أكبر منه ويقدر يعزله، ويقصد بذلك الخليفة العثماني.

وكان الفلاح المصري في صحيفة " أبو نظارة زرقاء " يسمى " أبو الغلب " وكريم حليم هو الأمير سليم عم الخديو كما كانت هناك أسماء أخرى لشخصيات من صميم الشعب يحاول الكاتب أن يوضح دورها في المجتمع العربي.

وضاق الخديو إسماعيل بهذا الصحفي الجريء وحاول أن بشتري ذمته وضميره بيد أنه رفض ذلك في أباء وسمم وقال لأحد أذناب الخديو : قل لإسماعيل ان كان هو خائنا فأنا لست كذلك وان كنوز العالم كلها لا تساوى ظل شرفي".

وقد غضب الخديو إسماعيل شديدا عندما نمي إليه نبأ عصيان

يعقوب بن منوع فأمر بإلقاء القبض على بائعي صحيفة "أبو نظارة زرقاء" كما أشيع في القاهرة ان محرر الصحيفة وجد صريعا في سريره ويظهر أن مصدر هذه الإشاعة أن الخديو إسماعيل كان قد خلف بعض أتباعه باغتياله .

وقد هاجر يعقوب بن صنوع إلى فرنسا في صيف عام ١٨٧٨ وكان خاوي الوفاض لا يملك من متاع الدنيا ما يقيم أوده بيد أن رحال الفكر الأحرار عاو نوه على أن يعيش حياة كريمة.

وقد أصدر في باريس صحيفة أطلق عليها . رحلة أبي نظارة زرقاء الولي، ثم أصدر بعد ذلك مجلة أبو نظارة زرقاء وتحمل نفس العنوان الذي كانت تحمله شقيقتها في مصر ثم غير العن وان إلى صحيفة «النظارات المصرية» ثم «أبو حفارة» ثم أطلق على صحيفته "الحاوى".

وكانت صحفه تدخل سرا إلي مصر وتباع بالآلاف وكان غالبا ما يضع صحفه في مجلات مصورة وفي كراسات الموسيقى وبين أوراق كتب من حجم الثمن وفي مجموعات للرسم وقد وضع في الجرائد التي نشرت صورة الخديو توفيق عام ١٨٧٩ أكثر من ألف نسخة من صحيفته ولم يكتف بإرسالها إلى المشتركين الكثيرين بل بعث بها أيضا إلى جميع أصدقائه ومعارفه وقد تلقى الخديو نفسه واحدة من تلك المتحف المصورة فوجد صحيفة يعقوب فيها ، وغضبه غضبا شديدا لهده الجرأة العظيمة وخاصة لما وجدانه نشر في صحيفته نص الخطاب الذي أرسله له الخديو يطلب منه فيه العودة إلى مصر ويعده بإحدى

الرتب فرفض هذا العرض قائلا : «إنى أفضل أن أعيش في المنفى على أن أكون غنيا في خدمة طاغية".

وفي عام ١٨٨٥ نمكن من إدخال أربعة آلاف نسخة من صحيفته بوضعها في مرتبة سرير، ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة إلى مصر ولم يلحظ رجال الجمرك شيئا وقد شكرته تلك السيدة الفقيرة على الجرائد التي تبرع لها بها وقالت : أنها ربحت من بيعها أكثر من خمسمائة فرنك.

وقد قيل له أن النسخ التي كانت تضبط بين الحين والأخر في الجمرك كان الموظفون يقرءونها أولا ثم يعطونها أصدقاءهم ومعارفهم فإذا ما انتهي هؤلاء من قراءتها باعوها إلى الباعة السريحة بواقع خمسة فرنكات لكل مائة نسخة وكان الباعة يوزعونها سرا بثمن مرتفع جدا .

وبرغم أن يعقوب بن صنوع كان يشكو من غلاء الطباعة في باريس وتكاليف الرسامين والبريد فانه ظل يصدر صحيفته في عزم وإصرار وكان يساهم معه في تحرير صحفه نخبة من المفكرين العرب الأحرار وكان من بينهم السيد جمال الدين الأفغاني الذي نشر عدة مقالات في صحفه منها مقال الشرق والشرقيين الذي نشره في العدد الثاني من أبي نظارة زرقاء السنة السابعة وتوسط الصفحة رسم كامل للسيد جمال الدين الأفغاني الذي استغرق مقاله أربع صفحات كاملة هي حجم العدد كله .

وكان يعقوب بن صنوع يلجأ إلى المحاورات من أجل التهكم والسخرية كما كان ينتقد الخديو إسماعيل الذي كان يسرف في فرض

الضرائب لا ليعمل لرفع الثروة القومية ولكن ليزيد من دخله.

وغير يعقوب بن منوع ابتداء من العدد الثامن الصادر في السنة الثالثة بتاريخ ٢١ ابريل عام ١٨٩٢ عنوان الصحيفة إلى «أبو نظارة زرقاء لسان حال الأمة المصرية الحرة » وقد وضح فيها الخطر المحدق بالقضية الوطنية كما صور فيها مأساة ضرب الإسكندرية والحريق الذي اندلع في مبانيها والمذابح التي دارت في شوارعها وصور حزنه الدفين على هذا الحادث الأليم ويوضح كذب الانجليز بتحميل مغبة هذا الحريق للمصريين ويدعو الجند إلى الجهاد، فيقول : وما لها أصل ولا فصل أخبار التلغراف لان جميعها صادرة من كلب البحر سيمور فلا أصدق أن عساكر مصرنا الإشراف جند الإنسانية تصل منهم أمور الجهاد المصري يموت في حب وطني العزيز فكيف يحرق وينهب البيوت وفي الواقع اللي حصل من القتل بإسكندرية داجاب علينا الحق لأنه عار ولو أن ابتداء من الجريح الدون والملطية اللي وزوهم إسماعيل و توفيق ومالت المكار، ويوجه ك لامه إلى الأمة البريطانية يشكو حكومتها فيقول : أنت كريمة يا أمة بريتانيا إنما حكومتك بالمظالم مشهورة أنتي بتدافعي في محافلك عن حقوق الأهالي المصرية، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المعمورة .

وبرغم أن هذه العبارات كتبت بأسلوب عامى ساذج فإنها تحمل من المعاني الشيء الكثير الذي يدل على حرص يعقوب بن منوع على الدفاع عن القضايا العربية ومهاجمة أعداء العرب والحكومات الأجنبية التي تهدد الشعب العربي .

وقد كان يعقوب بن مصنوع ينشر ترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة العربية كما كان ينشر مقالات أخرى باللغة الفرنسية .

ومن الصحف التي أصدرها جريدة التودد والمنصف والعالم الإسلامي. وقد رسمت على جانب اسمها قباب ومآذن وأشخاص باللباس العربي الأصيل وباللباس المصري مما يعطي صورة من أنها تعبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب وقد قرر محررها عشرة فرنكات اشتراكا لها وعشرين فرنكا مع . أبو نظارة، وخمسة وعشرين للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق.

وقد استهل العدد الأول بقصيدة يبتهل فيها إلى الله أن يحفظ العالم الإسلامي وأن يهبه من الفصاحة ما يجعله يثبت أن الإسلام دين يسر ولا يخاصم دينا من الأديان . وقد نشر في صحيفته هذه كلمات التأييد والتعضيد التي تلقاها من تركيا وإيران والعالم العربي كما نشر التحية التي تلقاها من احد محرري جريدة التايمز، وبرغم أن صحيفة العالم الإسلامي لم تستمر طويلا و كانت قاصرة في أنبائها على العالم الإسلامي لأنها جهد فرد من الأفراد لا جهد هيئة من الهيئات أو جماعة من الجماعات فإنها كانت صحيفة مدوية للدفاع عن القضايا العربية وشئون الإسلام .

وقد يؤخذ عليها عدم تعمقها في دراسة القضايا الإسلامية بيد أنها كانت لواء خفاقا باسم الإسلام في الغرب .

و كان يعقوب من أبوين غير مسلمين ومع ذلك فانه حفظ القرآن

الكريم وكرس حياته لخدمة الإسلام والمسلمين .

ويقول في ترجمة حياته : (وما أن فتحت عيني لأري نور الحياة حينما وصلت إلى وادي الدموع حتى انزلقت من بين يدي المولدة التي كانت في استقبالى، وظللت ثلاثة أيام بين الحياة والموت دون أن يعرفوا أن رأسى قد شج، ولكن ك ان على أن أعيش لأؤدي رسالة مقدسة إلا وهي مكافحة الأباطيل التي تفرق بين المسلمين والمسيحيين . بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل، وهكذا تتسنى لي الملاءمة بين قلوب الفريقين » .

ومن الصحف التي أصدرها أديب اسحق في باريس صحيفة مصر القاهرة، لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية وقال في خطة هذه الصحيفة « اردم مقاومة الباطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله وعن الفضل ورجاله، وأوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولي الأمر) ومثالب الخونة الذين تدعوهم وهما (أمناء الأمة) ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا . "ولاة النظام" .

ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيى الغيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ومالا منهوبا فيطلبوه، وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا وليستصغروا الأنفس والنفائس

في جنبا حقوقهم وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم .

وتختتم الصحيفة مقالها بهذه العبارة : فمن قتل دون دمه فهو شهيد و من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن عاش بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد "

وهكذا كان الكاتب يعتقد أن المشرق العربي كله (قومه) وهذا يدل على الصلة الوثيقة، والوشيجة المتينة التي كانت تربطه بإخوانه العرب في شتى الأقطار والأمصار .

ومن الصحف التي صورت حضارة العربية في أوربا صحيفة منبر الشرق، وقد صدر العدد الأول في مدينة جنيف في يوم الأحد و من فبراير عام ١٩٢٢ (٩ من جمادى الثانية عام ١٣٤٠) واستمر صدورها نحو اثني عشر عاما . وقد كانت هذه الصحيفة تصدر باللغتين العربية والفرنسية بيد أنها اكتفت بالصدور بلغة واحدة وهي اللغة الفرنسية وكانت خطتها أن يكون الشرق للشرقيين.

وقد ظللت تصدر في جنيف حتي عادت للصدور مرة أخرى في القاهرة عام ١٩٣٨ . وقد صدرت في العصر الحديث عدة صحت في أوربا وروسيا كما أصدر الدكتور محمود عزمي في انجلترة عام ١٩٣٣ صحيفة تسمي و العالم العربي » وصدرت في نيويورك جريدة الهدى للدكتور أحمد زكي أبى شادى وجريدة البيان، كما صدرت في بوينس

ايرس بالأرجنتين جريدة المواهب وجريدة السلام .

ومن الصحف التي كان لها أكبر الأثر والخطر في القرن الماضي صحيفة العروة الوثقى التي تخصص لها فصلا من هذا الكتاب لأهميتها وأهمية صاحبها السيد جمال الدين الأفغاني ومحررها الإمام محمد عبده، وقد قامت بعض الصحف في أوربا باقتفاء أثر هذه الصحيفة في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عن المسلمين كما نهضت في آسيا صحف كثيرة تدافع عن الإسلام وتدعو إلى أن يتمسك أبناؤه بالعروة الوثقى.

جريدة العروة الوثقى رسالة صادقة لتحرير المجتمع العربي

العروة الوثقى لا انفصام لها وهي في الوقت نفسه اسم لجريدة صدرت في باريس في القرن الماضي أو في عام ١٨٨٤على وجه التحديد وأنشأها فيلسوف الإسلام، وحكيم الشرق الطائر الصيت السيد جمال الدين الأفغاني، ويهدف فيها إلى الوحدة الدينية وجمع شتات المسلمين في عروة وتقي لا انفصام لها .

وكان يدير سياستها الأفغاني نفسه أما محررها الأول فكان الشيخ محمد عبده ويبدو من افتتاحية العدد الأول أن الاتجاه الدينى فيها يغلبه كل اتجاه آخر، فان روابط المسلمين المدية أقوى من روابط الجنسية واللغة وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم "

كما كانت هذه الجريدة تهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم وأبطال زعم أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون .

ودافعت العروة الوثقى عن القضية المصرية دفاعا مجيدا، وربطت هذا الدفاع بالدين وجعلت ساعة الخلاص من الاحتلال ساعة الفرح عند المسلمين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها إذ أن مصر مناط أمل المسلمين عموما . أن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين . فإذا كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم، وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية . ان الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال الأمة تستنفرهم ما دام الجرح نفارا .. "

أما عن منهج الجريدة الذي اتخذته لنفسها وسارت على هديه و منواله فهو أنها ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، و توضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت و تراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسيات القديمة

التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

وكانت الجريدة ترسل أعدادها إلى من تعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل حتى يتداولها الأمير والحقير والغني والفقير، وقد ضمنت الجريدة دعوتها إلى القراء بهذه العبارة، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته، على النهج الذي يريده والله الموفق "

وهذا يدل دلالة واضحة على أن منشئها جمال الدين الأفغاني ومحورها الإمام محمد عبده لم يكونا مضنين بمال أو جهد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية و المناداة بالفضيلة وتحرير الأوطان الإسلامية من ربقة الاستعمار ونير الاستعباد وحوزة الاستغلال ولم يكونا هادفين إلى مال أو ثراء، أو نفوذ أو جاه إنما كانا يلتمسان نشر الدعوة الإسلامية وبب النخوة الوطنية، بمختلف الوسائل وشتي الذرائع مهما كلفها ذلك من عرق ونصب وكد وكفاح وغربة عن الأهل والأوطان والأحباب والخلان حتى يرحل المستعمر وترفرف ألوية الحرية على العالم الإسلامي وقد رحبت البلاد الإسلامية ترحيبا عظيما بصدور هذه الجريدة وظلوا يتسابقون إلى الحصول على عدد من أعدادها، حتى إذا ما ظفروا به تناقلته الأيدي في شغف ولهف وقد أحس الانجليز بخطرها قبل صدورها، فهاجمت الصحافة الانجليزية بمجرد أن نمي إليها خبر إصدارها والى ذلك تشير جريدة العروة الوثقى في العدد الخامس فتقول : وعزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محررى الجرائد

الفرنساوية فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لمشربها ولا كاشفين عن حقيقة سيرها فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانجليزية المهمة أخذتهم الحدة، وأنذروا حكومتهم بما نؤثر مهده الجريدة في سياسة الإنجليز و نعوذها في البلاد الترقية، والحوا عليها ان تعد كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية . بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العمانية بالحجر عليها "

وتمكنت السلطات البريطانية من منع الجريدة من دخول الهند ومصر بيد أن صوت الحرية لا يخفت و يذهب أدراج الرياح، إنما استطاع بعض المصريين الحصول على أعداد من هذه المجلة وسرعان ما دب أبرها في نفوسهم، فزادت حماسة وإشغالا في تحرير وطنهم من المستعمر الغاصب.

وعندما تمكن عملاء الاستعمار من مصادره العروة الوفي في مصر احتد أسلوبها تجاه أذناب الانجليز وتمنت أن يكون بين المصريين من يستطيع ولو بأقسى الوسائل أبطال هذه الصفقة ونغمى هذه البيعة ونقصد صفقه الفرص التي كان يتفاوض فها نوبار :

وقد وضحت الجريدة سماحة الإسلام وسماحة خلف المسلمين إذ لم يسلك المسلمون في وقت ما سلك الالتزام بدينهم، والإجبار على ميوله، مع شدة بأسهم في بدايات دولهم و تعلقاهم في افتتاح الأمطار، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة إنما كانت لهم دعوة

يبلغونها فان قبلت وإلا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامى – هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الأولى فإنهم ما كانوا يطأون أرضا الأويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتطوق بدين أولئك المتسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسوريا بل في البلاد الإفرنجية نفسها .

وقد مضت العروة الوثقى توضيح وجهة نظر المستعرض في إلغاء الفكرة الدينية لبث الفرقة بين المسلمين إذ تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين هي الروابط الدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ولأولئك الإفرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة، رفس حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا والجريدة بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم شى مصالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأن الجريدة ولا تميل إليه ولا يبيحه الإسلام ولا تسمح به الشريعة ولكن الغرض " تحذير السرقيين عموما والمسلمين خصوصيا من تطاول الأجانب عليهم والإفساد في بلادهم، وقد تخص المسلمين بالخلاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها "

وفي مقالة نارية مضت الجريدة نوضح واجب المسلمين في التالف والتآزر، والتعاطف والتكامل، وكان عنوان المقالة الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، فقال : « آن للمسلمين شدة في دينهم، وقوة في إيمانهم، ونباتا على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وان من عقيدتهم أو تق الأسباب الارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين، ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء".

وانطلقت تحدد دستور الوحدة بين المسلمين فقالت : المسلمون حكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم في سبيل الحماية، وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح وارتكاب كل صعبة واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء، وأعوان الشهوات في كل زمان،

والمسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف٥ من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرضه عليه الإيمان وهو هاتف الحق الذي بقي له من الهامات دينه" .

وعلى هذا النحو مضت الجريدة تطالب بتحرير أفغانستان من بين الانجليز كما مضت تطالب بتحرير مصر من جنود الاحتلال البريطانيين وتخليص مراكش من الجنود الفرنسيين.

وفي ١٥ من مايو عام ١٨٨٤ زادت حمية الجريدة في الدفاع عن المصريين فنشرت في افتتاحيتها مقالا مستفيضا جاء فيه وهذه جريدة قامته بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها س عي بل كليه السعي لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو فان المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى في قلوب الشرقيين جميعا على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا س لاح التنازع بينهم، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم".

وفي مقالة : "وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " مضت تعدد مجد المسلمين في العصور الخوالي فقالت وأظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطارا متصلة وديارا متجاورة يسكنها المسلمون،

وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب، وأخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا، ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يود فول على قائلهم .

تم مضت الجريدة تقول « والمسلمون اليوم هم يملئون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعددهم لا ينقص عن مائتي مليون وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل غير أن الجريدة أرجعت وقوف المسلمين في سيرهم بل تأخرهم عن غيرهم إلى عدم الترابط " فأخذت ممالكهم تنتقص أطرافها وتتمزق حواسيها مع أن دينهم يرسم عليهم ألا يدينوا لسلطه من يخالفهم ويعمل على الاستئثار بالحكم عليهم وأن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع، واتفاق آرائهم على القيام به عند اللزوم و ارتباط قلوبهم الناشزة عن إحساس بما يطرأ على الأمة من الأخطار .

" أليس لكل واحد منهم أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله : " إنما المؤمنون أخوة " فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب .

هذه صفحات مطوية من العروة الوثقي وهي صفحات لا تزال مشرقة متألقة رغم تطاول السنين و تقادم العهد، وقد صدر منها ثمانية

عشر عددا بلغ فيها الشيخ محمد عبده الذروة في روعة الأسلوب ودسامة المادة، والحرص على التمسك بأهداب الدين الحنيف، وتخليص الوطن العزيز من براثن المغتصب الأثيم، وقد أفلت الجريدة في ٢٦ ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ ففقدت الصحافة نجما زاهيا في سمائها، ومشعلا متألقا هاديا في فضائها يهدى المسلمين إلى حقائق دينهم، ودقائق شريعتهم الغراء، والى حب أوطانهم وفدائها بالمهج والأرواح.

وعندما عاد محرر العروة الوثقى الإمام محمد عبده إلى مصر بعده أن تبينت براءته للحكومة المصرية عين قاضيا جزئيا في المحاكم الأهلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ثم انتهي به المطاف مفتيا للديار المصرية .

أما جمال الدين الأفغاني فقد بقي بعد إغلاق العروة الوثقى في باريس شهورا وفي لندن شهورا أخرى حتى أوائل شهر جمادى عام ١٣٠٣ حيث أزمع السفر إلى إيران.

الكتاب الثاني

الفصل الأول

مؤامرات من صدر الإسلام

في هذا الوقت الذي تنبعن فيه في بعض البلاد العربية محاولات فاشلة ومؤامرات خائبة ضد القومية العربية، وأنصار القومية العربية، يطيب لنا أن نقلب صفحات التاريخ لنقرأ بعض صور الغدر والخيانة التي صدرت عن نفوس مريضة وقلوب عليلة، ونيات أمارة بالسوء، وقد تم بعض هذه الجرائم فخلف أثرا سيئا في التاريخ على حين لم يشأ الله تعالى أن يحقق بعضها الآخر فبات بالفشل والخسران المبين.

ولعل أول صورة من صور الغدر والخيانة تتمثل في هجرة الرسول الكريم فقد تحالفت عليه قوي البني والإثم واتفقت قريش في دار الندوة على قتله والتخلص منه وتحطيم هذا الدين الجديد الذي يدعو إلى قلب الأوضاع الاجتماعية الموروثة وإنشاء مجتمع جديد، قوامه التعاطف والتالف، والتساند والتا زر وفوضت قريش إلى جماعة من الشبان الأشداء، قتله وإهدار دمه حتى يضيع دمه بين القبائل جميعا فلا تستطيع عشيرته أن تأخذ بثأره أو تنتقم من قتلته ولكن الرسول الكريم كما هو معروف في السيرة العطرة، استطاع أن يدرك بفطنته وأنصاره المخلصين سر هذه المؤامرة قبل تنفيدها . فاتخذ الحيطة وأعد الترتيبات اللازمة لخذلانها، وهذه حاسة استكشافية وقدرة إخبارية تستحق كل إكبار

وتقدير، فلو أن قريشا تمكنت من الرسول الكريم، وقتلته، لضاعت الدعوة في مهدها، ولما انتشر الإسلام في العالمين، ولتغير وجه التاريخ .

وقد يقول قائل ان الله نفث في روعه وأطلعه على نية قريش وقد يكون هذا على جانب كبير من الصحة بيد أن التجارب أثبتت فيما بعد أن « جهاز المخابرات » عند الرسول كان ناجحا إلى ابعد حد وكان الرسول يرسل بعض السرايا والأشخاص " لتنطس " الأخبار ولعل أكثر الانتصارات الحربية التي أحرزها الرسول تعزي إلى أحكام الخطة التي نفذها الرسول على ضوء التقارير السرية التي أحضرها أنصاره .

المهم أن الرسول استطاع أن يضع يديه على خيوط هذه المؤامرة قبل تنفيذها فبات على بن أبي طالب في فراشه، وخرج النبي حتى لحق بالفار وبات المشركون يحرسون « عليا » يحسبونه النبي فلما أصبحوا تاروا عليه فلما رأوا عليا : رد الله عليهم مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري « فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر وصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت وورد أن حمامتين عششتا على بابه وبقية القصة معروفة ومسرودة في سيرة ابن هشام ومروج الذهب وتاريخ الطبرى، وتاريخ أبي الفدا وغير ذلك من كتب التاريخ .

وتحدثنا المراجع أن مؤامرة أخرى دبرت للتخلص من الرسول الكريم وكان قوامها « دس السم في الطعام » وقصة هذه المؤامرة ترجع

إلى فترة انتصار النبي على يهود خيبر، إذ استطاع الرسول أن يهدم حصونهم ويهد سلطانهم ويقضي عليهم قضاء مبرما فطلبوا الصلح، ورفعوا راية الاستسلام، فأمنهم الرسول على حياتهم وأموالهم بيد أن نفوسهم كانت ملاى بالإثم والغضب، فعولت زينب بنت الحارث زوجة سلام ابن مشكم أن تنتقم ليهود خيبر من الرسول، فزعمت أنها ستقيم وليمة للرسول لعقد الصلح بين الطرفين، وأنها ستنحر فيها شاة لتقدمها هدية إليه، فجلس هو وأصحابه حولها ليأكلوها وتناول عليه السلام الذراع فلأي منها مضغة لم يستسغها، وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول، فأما بشر فقد استساغها وازدردها، وأما الرسول فقد لفظها وهو يقول: أن هذا العظم ليخبرني انه مسموم ! ثم دعا بزينب فاعترفت بجريمتها وقالت : لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت أن كان ملكا استرحت منه، وان كان نبيا فسيخبره، ومات بشر بن البراء من أثر السم، بعد أن سقط على الأرض يتلوى من الألم ولم ينفع فيه العلاج واختلف الرواة في مصر زينب بنت الحارث قال أكثرهم أن النبي عفا عنها وقدر لها عذرها بعد الذي أصاب أباها وزوجها في المعركة ضد المسلمين وذكر رواة آخرون أنها قتلت في بشر الذي مات مسموما.

والقتل بالسم يوجب القود (١) عند أحمد والشافعي ومالك ان كان

---

(١) القود هو القصاص وفي الحديث العهد قود أحكام القرآن للقصاص ج ١ ص ١٣٤-١٣٥

الموت قد حدث نتيجة لسفي الجاني المجني عليه بالسم وإذا كان السم قد وضع في طعام وقدم للمجني عليه فيجب القود عنده أحمد أن كان مثله يقتل غالبا، وعند مالك يجب مطلقا وفي قول آخر لا قود في ذلك، ويستند الشافعي في قوله بمنع القود بأن المجني عليه أكله مختارا، مثله كمن قدم أنيه سكين " فقتل بها نفسه ولكن تقديم السم يفارق في الواقع تقديم السكين لأنها لا تقدم إلى الإنسان ليفتل بهما نفسه بل تقدم إليه وهو عالم بمنفعتها ومضرتها فأشبه ما لو قدم إليه السم وهو عالم . وقد تمت الجريمة النسبة إلى بشر وعلى حين أوشكت أن تتم بالنسبة إلى النبي . وتنص المادة ١٩٧ من قانون العقوبات على أن من قتل أحدا عمدا بجواهر يتسبب عنها الموت عاجلا أو آجلا يعد قاتلا بالسم أيا كانت كيفية استعمال تلك الجواهر، وكانت المادة ٢١١ من القانون القديم تعاقب بالإعدام على مجرد إعطاء السم سواء نتج الموت أم لم ينتجه جارية على حكم المادة (٣٠١) الفرنسية : فالقانون الفرنسي يعتبر جريمة التسميم تامة ولو لم يقض السم على حياة المجني عليه، كما حدث في تقديم السم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . زد على ذلك أن القصد الجنائي متوافر بنية أحداث الموت، والشروع المعاقب عليه بتقديم الطعام المسموم إلى المجني عليه أو وضعه تحت تصرفه .

هذه هي بعض الأمثلة المؤامرات السياسية في عصر النبوة وان كان الطابع الديني يغلب على هذه المؤامرات بيد أننا لابد أن تقرر أن السلطة الدينية والسلطة الزمنية في هذه الفترة كأننا وحدة واحدة وكانت الزعامة

الدينية قاعدة جوهرية للسلطة الزمنية وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : " والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ ان أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به " فالخليفة هو الحاكم الزمني والحاكم الروحي، وهذا بخلاف ما نجده في الغرب في العصور الوسطى.

وفي عهد عمر بن الخطاب، بدأت المؤامرات تدبر في الظلام . وانتهت هذه المؤامرات باغتيال أمير المؤمنين بيد رجل مجوسي أو نصرانى أو فارسى من موالى المغيرة بن شعبة، وقد روى ابن سعد في الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائدا من حجه ان خطب في الناس يوم الجمعة فذكر نبى الله، وذكر أبا بكر الصديق ثم قال أيها الناس، إني رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور اجلى، رأيت ديكا أحمر نقرنى نقرتين، وقال : أيها الناس قد فرضت لكم الفرائض، وسننت لكم السنن، وتركتم على الواضحة، إلا ان تضلوا الناس يمينا وشمالا اللهم اني أشهداء على أمراء الأنصار فإنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وليدلوا عليهم ويقسموا فيهم بينهم وير قعوا إلى ما أشكل عليهم من أمرهم .

وفي يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة خرج عمر بن الخطاب من منزله قبيل مطلع الفجر، ليؤم الناس

في الصلاة، وكان يوكل رجالا بالمسجد بالصفوف يسوونها قبيل كل صلاة مراعاة للنظام، فإذا اعتدلت الصفوف جاء هو فنظر إلى الصف الأول، فإذا رأى فيه متقدما أو متأخرا علاه بالدرة، حتى إذا انتظم الجمع في أماكنهم كبر للصلاة، ودخل أمير المؤمنين في تلك الساعة ليستعد للصلاة، ولم يكد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وقد خيم الغبش على المكان فلما شرع ينوي الصلاة ليكبر حدث مالم يكن في الحسبان حدث أن ظهر على حين غرة رجل يقدح من عينيه الشرر فطعنه بخنجره ثلاث طعنات إحداهما تحت سرته، وأجب عمر بن الخطاب بنصل السلاح يوغو في جسمه، فالتفت الين المهملين وأخذ يصيح وقد أذهلته المفاجأة، وأدركته الحيرة . الحمد له فقد قتلني !

وكان الكلب يسمى في بدبي لؤلؤة النصراني، وقد حضر إلى المسجد متربصا قتله في هذه الساعة المبكرة من السحر، و كان قد أخفي في نيابة خنجرا قبضته في وسطه، وله تصلان حادان وتوارى في أحد أركان المسجد، حتى إذا ما دوت التهليلات والتكبيرات في المسجد، وشرع الناس ينشغلون بالصلاة بعد جريمته، لم ولي الأدبار، ولكن المسامين تكاثروا عليه من كل جانب وسدوا أمامه السبل، وحالوا بينه وبين الفرار، فانطلق كالثور الهائج يحاول أن يشق طريقه، والنصل يلمع في يده، ويطعن به المسلمين يمنة ويسرة، فيسقط منهم من يسقط ويقاوم منهم من يقاوم، حتى طعن اثني عشر منهم مات ستة على حد تعبير بعض الرواة، وتسعة على حد تعبير رواة آخرين، بيده أن رجلا قوى الشكيمة، مفتول العضلات أتاه من ورائه فألقى عليه رداءه، حينئذ تمكن

من أن يلقيه أرضا، وينقض عليه . وحاول الرجل أن يجرده من سلاحه، ولكن أبا لؤلؤة أيقن انه مقتول لا محالة . فطعن نفسه بالخنجر الذي يحمله قبل أن يتمكن من نزعه المسلمون.

وكانت الطعنة التي أصابت عمر بن الخطاب تحت سرته غائرة إذ مزقت الصفات والأمعاء ولذلك أودت بحياته وقيل أن عمر لم يستطع الوقوف على قدميه فسقط لتوه على الأرض، واستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة بالناس، فصلى بهم بأقصر سورتين من القرآن الكريم وهما " العصر، والكوثر "

وقيل بل ماج الناس بعضهم في بعض لذلك المصاب الفادح الذي نزل بأمير المؤمنين وبطائفة من المسلمين الذين سقطوا صرعى في أطهر بقعة ضد سلاح الخيانة والغدر وهم يحاولون الإمساك بتلابيب هذا القاتل الذميم واشتد إضرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره على مقربة من المسجد، وظلوا في اضطرابهم حتى نادي المنادي : الصلاة عباد الله ! قد طلقت الشمس ! فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلي بأقصر سورتين.

وهذه الرواية هي الراجحة في أقوال المؤرخين، فليس هـ المعقول أن تنتظم صفوف المسلمين للصلاة لتوها بعد أن يرو امير المؤمنين متضرجا في دمائة ومن حوله أصحابه يسقطون وقد مزقت صدورهم طعنات المجوسى.

حمل عمر بن الخطاب على أثر الحادثة إلى داره وتجمهر الناس

حول بيمه مستفسرين، ودخل إلى فراشه بعض كبار أهل الرأي . وقال عبد الله بن عباس : فلم أزل عند عمر، ولم نزل في غسية واحدة حتى استقر الشبح، فلما أفاق نظر في وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة :

وخرج ابن عباس من بيت عمر بن الخطاب بعد أن ض مد أصحابه جراحة : ونادي في الناس كرغبة أمير المؤمنين : أيها الناس أن أمير المني منين يقول : أعن ملأمنكم هذا ؟! وقد قصد بذلك أن هذه الحادثة تمت على مرأى ومسمع من المسلمين، فدوى صوت الحاضرين كالبرق القاصف مرة واحدة : معاذ الله ! ما علمنا ولا أطلعنا، فسألهم ابن عباس : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

ملأ ابن عباس سمعه بهذه الإجابات الواضحة وهذه البراهين القاطعة، وشهادة الإثبات التي لا محيص عنها، ولا شك فيها، ودخل إلى عمر بن الخطاب فأنبأه بأقوال الشهود، وأخبره أن المجوسى طعن نفسه بالخنجر نفسه الذي طعن به أمير المؤمنين فأزهق روحه فقال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط : ما كانت العرب لتقتلني !"

وحضر في هذه الأثناء أحد الأطباء فسقى عمر بن الخطاب نبينا، فأشبه النبيل الدم حين خرج من الطعنة تحت السرة . فدعا عبد الله بن عمر طبيبا آخر من الأنصار ثم آخ ر من بني. معاوية، فسقى عمر لبنا

فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير لونه، ولم تجد كل المحاولات التي بذلت لإنقاذ حياة أمير المؤمنين إذ سرعان ما لفظ أنفاسه الكريمة، وفاضت روحه إلى بارئها، وانتهت صفحة حياة خليفة ذي إرادة حديدية ضد قوى الظلم الطغيان . ونحن لا نستبعد أن يكون للسياسة أصبع في هذه ريمة، فالحقيقة أن الفرس واليهود والنصارى كانت في نفوسهم معينة على العرب عامة وعلى عمر خاصة بعد أن غلبهم المسلمون في أمرهم، وتولوا حكم بلادهم، وانتهى أمر عاهلهم إلى الفرار، .بفرار يزدجرد من أرض فارس إلى أرض الترك ثم القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان.

وقد نصت المعاهدات المعقودة بين الغرس والمسلمين على الاحتفاظ بحقوق العرب كاملة غير منقوصة . فنص صلح أصفهان على « من سب مسلما بلغ منه، فان ضربه قتلناه، ونس صلح الري على أن « يقروا للمسلمين يوما وليلة وأن يفخموا المسلم فمن سب مسلما أو استخف به نهى عقوبة ومن ضربه قتل ونهى صميم جرجان على « من سب مسلما بلغ جهده من ضربه حل دمه "

ولعل هذه الشروط التي أملاها العرب المنتصرون على الفرس كما لعل حرمانهم من الوظائف الهامة في الدولة أوما إليها أو غر صدورهم فعولوا على الانتقام من أمير المؤمنين، الذي يقف خلف هذه الانتصارات الكبرى .

وتقول المصادر الوثيقة ان عبد الرحمن بن عوف رأى السكين التي قتل بها عمر فقال : رأيت هذه السكين أمس مع الهرمزان وجنينه فقلت

: ما تصنعان بهذه السكين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ! و قال عبد الرحمن بن أبي بكر : قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي أي يتناجون فيما بينهم، فلما نعتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونضاب في وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر فوجدوه الخنجر الذي لفت عبد الرحمن بن أبي بكر.

وهكذا اتفقت شهادة عبد الرحمن بن عوف مع شهادة عبد الرحمن بن ابى بكر على وجود خطة مدبرة، ومؤامرة مدبرة في الظلام وأيد الشهادتين أن النصل الذي قتل به عمر بن الخطاب كان في أيدي المؤتمرين وهم يتناجون فيما بينهم وما كانت هناك ضرورة وجود الخنجر، ولا سيما أن الموقف لا يستن عى الدفاع عن النفس لو أنهم كانوا يتناجون في أمر يصاح الله به حال البلاد والعباد .

وعلى هذه الصورة البشعة المنكرة تم اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ونفذت ادنا مؤامرة في تاريخ المسلمين .

ولا خلاف بين الفقهاء بأن القتل بالمحدد يوجب القصاص، والقتل بالمحدد هو كل آلة لها حد كالسلاح وما جرى مجراه من الأشياء المحددة أي التي تماثله في تفريق الأجزاء كالمحدد م الخشب أو ما كان من الزجاج والذهب أو الفضة أو النحاس أو الرصاص، ويرى جمهور الفقهاء عدم اعتبار القتل عمدا إلا إذا ارتكب بالة قاتلة، ويشترط الإمام أبو حنيفة أن تكون الآلة التي استخدمت في القتل محددة أي مفرقة

الأجزاء فان لم تكن كذلك إلا بعد القتل عمدا . وقد ثبت من معاينة السلاح الذي استخدم في قتل عمر بن الخطاب أنه محدد أي مفرق الأجزاء، وذو نصلين كما كان القاتل متعمدا بقتل عمر مما يغلب على الظن موته به (الشرح الكبير) وكان كما جاء في البدائع في القتل العمد "قاصدا إياه كما كان القصد عمدا محضا ليمن فيه شبه العدم ".

وقد جاء في كشف القناع أنه يشترط في القتل العمد القصد فان لم يقصد القتل فلا قصاص، وقد توافر القصاص في أركان هذه الجريمة بل لقد تمت الجريمة مع سبق الإصرار وهو القصد المصمم عليه قبل الفعل لارتكاب جنحة وجناية ويكون غرض المعد منها إيذاء شخص معين أو غير معين وجده أو صادفه سواء كان ذلك القصد معلقا على حدوث أمر أو موقوفا عليه (مادة ١٩٥ ع).. وقد سبق الإصرار جريمة قتل عمر بزمن فكر فيه المتهم ورتب ما عزم عليه ووازن بين مزاياه وأخطاره، وتدبر عواقبه، وخرج بعد ذلك مصمما على ارتكاب الجريمة فهو أشد خطرا ممن يقدم عليها بدون تفكير أو تدبر (جارسون مواد ٢٩٦ – ٢٩٨ فقرة ٦) .

كما تم في هذه الجريمة الترصد وهو تربص الإنسان الشخص في جهة أو جهات كثيرة مدة من الزمن طويلة كانت أو قصيرة ليتوصل إلى قتل ذلك الشخص أو إيذائه بالضرب أو نحوه (مادة ١٩٦) وقد تم الترصد في هذه الجريمة إذ انتظر الجاني عمر في المسجد ثم أجهز عليه . والرأي السائد بين الشراح والمحاكم الفرنسية أن الترصد يستلزم

سبق الإصرار، وان الأول إنما هو مظهر من مظاهر الثاني يقترن فيه التصميم بعمل خارجى هو الكمون في مكان معين لترقب الفرصة الصالحة لتنفيذ ذلك التصميم ففيه زيادة على سبق الإصرار معنى الغدر .

ولم يكد يتولى عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر حتى هبت الفتن من مرقدها، وانتهى الأمر بمصرعه ض حية المؤامرات السياسية كذلك . وكانت هناك « جمعية سرية » يدير شئونها « عبد الله بن سبأ » المعروف «بابن السوداء» تناهض عثمان ابن عفان، وكان عبد الله يهوديا ثم أسلم على عهد عثمان، فأسس جمعية على مبدأين دينيين أولهما وجوب رجوع محمد عليه الصلاة والسلام إلى الدنيا كما قيل برجوع عيسى عليه السلام، والمبدأ الثاني وصاية علي بن أبي طالب، فكان يقول للناس : أنه كان لكل نبي وصي، وعلى وصى محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله :ووثب على وصيته، وان عثمان أخذها بغير حق . وبعث عبد الله بن سبأ دعاته في شتى الأقطار والأمصار المناهضة عثمان بن عفان، كما قام « همران بن ابان » في البصرة يغار الصدور على عثمان لأنه كان حاقدا عليه أن ضربه ع لى زواجه بامرأة في العدة وحرض أهل الكوفة على التظاهر بالعداء كما اتهمه أعداؤه بإتمامه الصلاة في منى وعرفة وكان الرسول. والخليفتان أبو بكر وعمر بعده يقصرونها، وبإخراج أبي ذر من الشام والمدينة، وكان يعتقد أن كل أموال الفيء من حقوق المسلمين وليس للإمام أو من يقوم مقامه آن يدخر شيئا منها بل يجب أن تقسم على الناس . وبسقوط خاتم النبي من يده في بئر اريس، وبمجاباة أهله وأقاربه وبني عمه واقتطاعهم القطائع وإغداق الأموال

عليهم واستئثارهم بالسلطة وترك المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يوليهم حتى أن عمرو بن العاص كان يضجر من عثمان في أواخر أيامه . فلما انتهى عثمان من إحدى خطبه صاح به عمرو: اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب إلى الله نتب !

وانتهى أمر الثوار بمحاصرة داره ليحماوه على خلع نفسه بل أنهم منعوا عنه الماء حتى يذعن لأوامرهم، ودخل عليه وفد منهم يرأسه « ابن عديس » وسألوه عن استبداد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وأظهروه على الكتاب الذي أرسله إليه فحلف انه ما كتبه ولا علم به، فسألوه عمن كتبه فقال لا أدري ! فقالوا كيف تكتب في مثل هذه الأمور العظيمة، وتدل عليها كاتبك وأنت تعلم ؟ فان كنت كاذبا قد استحققت الخلع وان كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخنث بطانتك فاخلع نفسك كما خلقك الله فأجابهم عثمان أني لا أنزع ثوبا البسنيه الله تعالى، ولكني أتوب وأنزع قالوا له : لو كان هذا أول ذنب تبت منه فبانا، ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو تقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وان منعك أصحابك تقاتلهم حتى نخلص إليك وخرج الوفد حتى يترك عثمان يفكر .

وفي هذه الأثناء بلغ الثائرين خبر وصول المدد الذي طلبه عثمان، فحاول بعضهم أن يدخل عليه ليقتله فمنعهم الحسن والحسين عليهما السلام، ومحمد بن طلحة، وابن الزبير، وأبو هريرة، وسعيد بن العاص.

وجد الثوار في أمرهم، واقتحموا عليه الدار فأشرف على المتآمرين وقال لهم : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :

ألستم تعلمون أن رسول الله قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته ؟ ألستم تعلمون أنه قال : من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها؟

ودخل عليه احد الثوار فقال : اخلعها وندعك فأبى فخرج الرجل ودخل، آخر، وكلهم يعظه ويخرج، ثم دخل عليه محمد ابن أبى بكر فحاوره طويلا وخرج، ثم دخل عليه الغوغاء من الثائرين، فطعنه الغافقي بحديده كانت معه، وجاء غيره ليضربه بسيفه، فأكبت عليه زوجته نائلة، وتلقت السيف عنه بيدها فقطع أصبعها، ثم ضربوا عنقه، وانتهبوا بيته و بيت المال، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام ٣٥ هـ (٥٥٦ م).

وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسمدا ومن كان بالمدينة فدخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فقال على ابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ورفع يده، فلطم الحسن وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير ؛ وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله .

وهكذا تمت هذه المؤامرة التي أدى تنفيذها فيما بعد إلى فرقة المسلمين وانقسامهم شيعا وأحزابا والواقع أن الباحث في مقتل عثمان بن عفان يصادفه بعض الجرائم لا جريمة واحدة، فقد منع الثوار عن عثمان الماء حتى يخلع نفسه عن الخلافة، ونحن لا نستطيع أن نقطع بأن الثوار أرادوا أحداث جريمة القتل بالترك أو الامتناع كما يسميها المشرعون، و في مبحث اختلف فيه العلماء من قديم وأفاض فيه علماء الألمان خاصية ومنهم فون ليست.

فإذا كان التوار شرعوا في اح: أن جريمة القتل بمنع الماء عن عثمان حتى يموت عطشان، والترك نفسه يصلح سببا لجريمة لان الفعل والترك كلاهما من صور الإرادة الإنسانية العاملة . في ستين يرى بعض العلماء أن الترك علم والعدم لا ينشئ إلا العدم، ولا يمكن أن يبني موجود على معدوم أو بعبارة أخرى لا يمكن أن يكون العدم سببا في نتيجة ايجابية .

ولكن الذي يحبس شخصا بغير حق، ويمنع عنه الطعام والتراب قاصدا قتله يعاقب على القتل عمدا إذا مات السجين جوعا أو عطشا، بل أن الأم التي تمتنع عن تغذية ابنها إلى أن يموت جوعا أو عطشا تعتبر قاتلة وتعاقب بعقوبة القتل العمد .

بيد أن الأمر لم يقف عند جريمة الشروع في القتل بالترك أو الامتناع إنما امتدت إلى الفتل بالة محددة عمدا مع الترصد وسبق الإصرار، فنحن أمام جريمة عمدية كاملة الأركان توافر فيها العنصر المادي الذي يتمثل في نشاط الفاعل الملموس أو فيما يجريه خارج شخصه، ففي هذه الجريمة مثلا يتكون الركن المادي من الطعن بالسلاح وموت المجني عليه وعلاقة السببية بينهما .

أما الركن المعنوي في هذه الجريمة فهو دلك الجانب من نشاط الفاعل الذي يجري في داخليته أو في نفسه وفي الجريمة المتقدمة يتكون من إرادة الجاني أو الجناة والطعن بالسلاح، واتجاه القصد إلى الموت وإزهاق الروح .

وقد توافر في هذه الجريمة كذلك الاتفاق الجنائي بين الفاعلين، بيد أن بعض الفقهاء يرون أن عثمان بن عفان كان صلب العود، ثابت الرأي في غير ما موضع وكان من الأفضل أن يتنازل عن الخلافة لغيره ما دامت القبائل تضافرت ضده من ك ل جانب ولا س يما أن الثوار دخلوا عليه أكثر من مرة لمفاوضته في هذا الشأن فأبى أن يخضع لأرائهم، ورفض التنازل في كبرياء، على ان هذا لا يعني الجناة من القصاص عملا بقوله تعالى : " كتب عليكم القصاص في القتلى"، وجاء في نهاية المحتاج « من جرح رجلا عمدا فلم يزل ذا فراش حتى مات فعليه القصاص ولو اندملت جراحته واستمر محموماً حتى هلك فيجب القود أن قال طبيبان عدلان أنها من الجرح فلا غرو أن ينتحل بعض الزعماء المشهورين مثل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من مقتل عثمان وعدم المطالبة بدمه والقصاص من قاتليه سببا في مهاجمة على بن أبي طالب.

واجتمع في موسم الحج عام ٣٩ هـ نفر من الخوارج في مكة هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والحاج أبن عبد الله التميمى الصريمي، وعمرو بن بكر التميمي، واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة على ومعاوية وعمرو بن العاص هم سبب البلاء والفرقة واتفقوا على أن يتولى ابن ملجم قتل على، والحجاب الصريمى قتل معاوية وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص، وأن يكون التنفيذ في الكوفة في وقت واحد في ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ.

وسافر ابن ملجم إلى الكوفة وأخذ يسقى سيفه السم ثم ذهب إلى المسجد لتنفيذ المؤامرة، وباغت عليا وطعنه بالسيف في مقدمة رأسه طعنة

قوية وهو يقول :الحكم الله لا لك يا علي ! فصاح على : لا يفوتكم الرجل فقبض الناس عليه، والتف الناس ح ول الجريح فقال : إن هلكت فاقتلوه كما قتلني . وان أعش فأنا ولى دمى . أما عفوت ، وأما اقتصصت . ولكنه توفي بعد يومين من الحادث . وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه . ولم يفز الذي ندب لقتل معاوية . أما ما كان من أمر عمرو بن بكر الذي عول على قتل عمرو بن العاص فانه جلس له في الليلة المذكورة، فلم يخرج عمرو بن العاص لمرض الم به . وندب خارجة بن خداقة قاضى مصر ليصلي بالناس وبينما هو في الصلاة ضربه عمرو بن بكر بالسيف فقتله وهو يظنه عمرو وقال : أردت عمرا وأراد الله خارجة ! ولما وقف الرجل بين يدي عمرو بكى فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الإقدام ؟ فقال : لا والله ! ولكن غما أن يفوز صاحباى يقتل علي ومعاوية . ولا أفوز انا بقتل عمرو.

الفصل الثاني

مؤامرات من العصرين الأموي والعباسى

قبل أن نتعرض للمؤامرات في العصرين الأموي والعباسى نتحدث عن مؤامرة كان لها أكبر الأثر في قيام الدولة الأموية، وأعني بها مؤامرة التحكيم إذ أرسل علي بن أبي طالب الأشعث ابن قيس إلى معاوية ليستخبر أمره ويعرف رأيه، فقال له معاوية بن أبي سفيان : « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، تبعثون منكم رجلا ترضونه، ونبعث منا رجلا، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله » .

وعاد الأشعث إلى علي بن أبي طالب فأحاطه علما بوجهة نظر معاوية، فقال الناس : رضينا وقبلنا ونتيجة لذلك اختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري فقال علي بن أبي طالب : « قد عصيتموني في أول الأمر. فلا تعصوني الآن » وأبدي لقومه وعشيرته خشيته من تنصيبه موسى الأشعري مندوبا عنهم في التحكيم لأنه كان يخذل الناس عنه، بيد أنهم أصروا على موقفهم وأبوا ألا إياه، فأذعن على مضض لرأيهم.

ولم يلبث أن اجتمع عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري « بدومة الجندل » في شهر صفر عام ٣٧ هـ حيث كتبا عقد التحكيم، ويؤخذ من هذا العقد أنهما اتفقا على النزول عند حكم الله عز وجل

وكتابه ولا يجمع بينهما غيره، وأن كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته بينهما يحييان ما أحيا ويميتان ما أمات، وقررا الأمان على أنفسهما وأهلهما وشتي طوائف المسلمين، وأن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم، وبعد ذلك تجلى دهاء عمرو في أجلى صوره واو فسح مظاهره. إذا استدرج عمرو أبا موسى حتى خلع عليا على حين تبت عمرو معاوية بن أبي سفيان .

ويروى الطبري في تاريخه حصة هذه المؤامرة السياسية التي دبرها عمرو بن العاص لتثبيت أقدام معاوية فيقول : فال عمرو يا أبا موسى – بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة . ما رأيك ؟ قال : رأيي أن نخلع هدين الرجلين، ونجمل الأمير شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا فقال له عمرو أن الرأى ما رأيت . وقال : يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى : أن رأيى و رأى عمرو قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة، فقال عمرو : صدق، تقدم يا أبا موسى فتكلم ! فتقدم أبو موسي ثم قال: أيها الناس ! أنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم تر أصلح لأمرها ولم شعثها، من أمر قد اجتمع رأيي ورأيه عليه، وهو أن نخلع عليا ومعاوية، فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر، فيولوا منهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت عليا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم . وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا. ثم أقبل عمرو بن العاص، فقام مقامه، فيحمد الله وأثنى عليه، وقال : ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه

كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فانه ولى عثمان بن عفان رضي الله عنه والمطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه » فتنابذا، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة تم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة .

ويروي المسعودي في مروج الذهب، قصة هذه المؤامرة بطريقة أخرى تختلف عن رواية الطبري بيد أنها تتفق معها في مضمونها وهو خداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري، وخلع على بن أبي طالب، و تثبيت معاوية بن أبي سفيان، فهو يقول انه لم يكن بينهما غير صحيفة مكتوبة تعاهدا فيها على خلع على ومعاوية وأن يولي . المسلمون من أحبوا، ولم يخطب احد منهم في الناس

وسواء أكانت رواية الطبرى أم المسعودي هي الصحيحة، بان المؤامرة قد تمت وتمكن عمرو بن العام من تنفيذها، وعندى انه لم يكن سوى آلة منفذة لها أما الرأس المفكر، فكان معاوية ابن أبي سفيان، وهذا واضح جلي من اجتماعه بعمرو قبل التحكيم، بل ان معاوية قال لعمرو قبل التحكيم " يا أبا عبد الله ! أن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى . وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي نأخذه مأخذ الجد، ولا تلقه برأيه كله ".

ويعزو بعض المؤرخين نجاح هذه المؤامرة إلى دهاء عمرو ابن العام الذي كان خير مدافع عن موكله والي طيبة قلب أبي موسى الأشعري، بل سذاجته وقلة حيلته . والغريب أن الطبرى يروى رواية فحواها أن عبد الله

بن العباس قال لأبي موسى الأشعري حين أراد عمرو بن العاص أن يتقدمه : ويحك أني والله لأظن عمرا قد خدعك، أن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه ليتكلم بذلك الأمر تبلك، ثم تكلم انت بعده، فان عمرا رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطال الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك .

وإذا صحت هذه الرواية التي كانت بمثابة التحذير لأبي موسى الأشعري، فإنها تدلنا على أنه كان خاليا من دهاء رجل السياسية، وتبصره، وبعد نظره وثاقب فكره.

وساعدت عوامل كثيرة على تثبيت ملك معاوية، ومن أبرزها نجاح هذه المؤامرة واضطراب حال جيش على بن أبي طالب . والتفاف جند معاوية حوله وتأيده، ونصرته .

ولم تكن هذه المؤامرة إلا بداية المؤامرات أخرى فقد غضب نضيف كبير من أهل العراق لفكرة التحكيم وطلبوا من على أن يرجع عن خطته، وان يشعلها حربا عوانا ضد معاوية، وأوفدوا إليه رجلين من زعمائهم هما زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، فطلبا منه الإذعان لرأيهم أو الخروج على طاعته وشن الحرب عليه، إذا أصر. على قبول التحكيم وسمي هذا الفريق بالخوارج .

وقد اجتمع هؤلاء الخوارج واختاروا عبد الله بن وهب الرأس زعيما عليهم، واستقر أمرهم على مغادرة الكوفة وإعلان الثورة، انكار لهذه «

البدعة المضللة والأحكام الجائرة » وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم عقيدتهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلينا، واجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة و قصدوا النهروان فسار على إليهم، فلقيهم على النهروان وأبادهم فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا على حد تعبير ابن طباطبا في « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ولكن هزيمة على للخوارج في النهر وان لم تقض على كل فئاتهم فقد ظلوا شوكة في جانب الأمة الإسلامية التي أصبحت عند تولي معاوية بن ابى سفيان الحكم وقيام الدولة الاموية، تتنازعها ثلاث طوائف، طائفة شيعة بني أمية من أهل الشام وغيرها من الأمصار، وشيعة علي بن أبي طالب، وطائفة الخوارج وهي تعادي الفريقين السابقين وتستحل دماءهما .

وقد شرع الخوارج يدبرون المؤامرات السياسية لتولى الحكم وتفاقم خطرهم في الأمة الإسلامية بيد أن زياد بن أبيه لما تولى البصرة عام ٤٥ هم خطب خطبته المشهورة بالبتراء، واشتد في معاملة الخوارج حتى عجم عودهم .

ولكن الدولة الأموية ظلت مهددة بثورات، الخوارج فترة طويلة، شهد هذا العصر كثير من زعمائهم نذكر منهم المختار الثقفي، ونافع بن الأزرق وصالح بن مسرح التميمي . وشبيب بن يزيد نعيم الشيباني . ونجده بن عامر، وزياد بن الأصفر وغيرهم .

مصرع الحسين بن علي :

ولا يمكن المؤرخ العصر الأموي والمؤامرات السياسية التي دبرت فيه أن يغفل قصة مصرع الحسين بن على التي تعد من أشد الجرائم قسوة في التاريخ الإسلامي. إذ أرسل يزيد بن معاوية إلى الحسين بن علي، وكان وقتذاك في المدينة، ليدخل مع من دخل في مبايعته، فامتنع الحسين وأبى أن يذعن لرأى يزيد وخرج إلى مكة وما أن وصل إليها حتى بلغته الرسائل من العراق ومبايعته له دون يزيد بن معاوية وهنا ازدادت حماسته، وعول على الصمود حتى النهاية، بيد أن بعض خلصائه نصحوه بعدم تصديق أمر هذه الرسائل . وانقسم أتباعه إلى فريقين، فريق يؤيد رسائل أهل العراق وينصحه بالخروج إلى العراق، وفريق لا يؤيدها، وبعدها خدعة من الخدمات السياسية ولونا من التآمر ومن هذا الفريق عبد الله بن العباس وابن عمر .

ولكن الحسين بن علي لم يوافق هذا الفريق الأخير وانصاع لرأي الفريق الأول، إذ ملئوا آذانه بأنه سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أكفأ المسلمين علما، وأكثرهم دراية بشئون الشرع الشريف.

وأراد الحسين أن يستوتق من تأييد زعماء العراق الذين كتبوا إليه، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل، فأخذ بيعته له منهم، وبعث إليه أن يحضر لملاقاتهم .

خرج الحسين من مكة بعد ما بلغه كتاب مسلم بن عقيل، وما أن

خرج منها حتى انطلق عبد الله بن عمر في أثره ليمنعه من الخروج إلى هناك خشية الهلاك وحتى لا يذهب ضحية مؤامرة خبيثة لقتله، أو التفرد به في هذه البقاع حتى يسلمه الجند للموت، وادركه عبد الله بن عمر بعد ميلين من مكة وقال له : ارجع، فأبي الحسين فقال : « أني محدثك حديثا، أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فخيرة بين الدنيا والآخرة، فاختار الأخوة، وانك بضعة منهم، والله لا يليها أحد منكم، فقال الحسين « أن معي حملين من كتب العراق يبايعني أصحابها بالخلافة » فقال عبد الله بن عمر : « ما تصنع بقوم قتلوا أباك وخذلوا أخاك؟ »

وأبى الحسين إلا الانطلاق إلى العراق فبكى عبد الله بن عمر وقال والدموع تنهمر من عينيه .والحشرجة تبدو في صوته : "استودعك الله من قتيل" ورجع وهو يقول « لقد غلبنا الحسين بالخروج، ولعمري لقد كان له في أبيه وأخيه عبرة » .

وهكذا لم يلق الحسين بالا لنصيحة عبد الله بن عمر، كما ذهب نصح عبد الله بن عباس دبر أذنيه، إذ قال له وهو يعظه : « لا تخرج إلى أهل العراق » فلما لم يصف إلى وعظه قال : « والله إني لأظنك تقتل بين نسائك وأبنائه وبناتك كما قتل عثمان بن عفان » كما قال له كذلك : « أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم وان كانوا دعوك إليهم – وأمير عليهم قاهر نهم، عماله تجبى بلادهم . فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال، ولا

آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك، ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك، فقال له الحسين : « أني أستخير الله وأنظر، ولم يلتفت إلى نصحه، ولم يأبه كذلك لقول الفرزدق الشاعر عندما لقيه ، قلوب الناس معك وسيوفهم م ع بني أميه والقضاء ينزل من السماء ".

ولما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين بن علي أرسل عبيد الله بن زياد لمحاربته فخرج إلية مسلم بن عقيل قبل وصول الحسين، بيد أنه قتل في إحدى المعارك، وفي هذه الأثناء وصل الحسين إلى الكوفة وهناك قابله الحر بن يزيد التميمي وقال له : ارجع فاني لم أدع لك خلفي خيرا أرجوه » فهم الحسين بالرجوع ولكن أخا مسلم بن عقيل حرضه على متابعة السير حتى يأخذ بثأرهما .

وخطيب الحسين في الناس فقال : " أيها الناس ! إنكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن ارضي الله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين السائرين فيكم بالجور والعدوان، فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم".

وعندئذ نهض الحر بن يزيد التميمي وعارضه قائلا : « أنا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر،، فأخرج الحسين مجموعة من الرسائل الواردة إليه من أهل العراق، فلما ألقي الحر عليها بصره قال : أنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك إلا نفارقك حتى تقدم بك على عبيد الله بن زياد.

ومنع الحر بن يزيد التميمي أصحاب الحسين من ركوب مطاياهم فقال له الحسين : ثكلتك أمك ما تريد ؟ فقال الحر: لو كان غيرك قالها ما تركت ذكر أمه، والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه

ونشب القتال بين الفريقين في شهر المحرم عام ٦١ هـ في كربلاء وبينما هم يتقاتلون دوى صوت المؤذن للصلاة فأستأذن الحسين أعداءه في قيام الهدنة بين الطرفين، حتى يؤدى القوم الصلاة فقبل خصومه وقف القتال ورفعوا راية الأمان، ولم يكن الحسين ينتهي من صلاته حتي انقض عليه خصومه انقضاضه واحدة وقتل الحسين و قتل معه اثنان وسبعون رجلا منهم ثلاثة وعشرون من أهل بيته وسلب سراويله . ونهب نقله ومتاعه .وما على النساء وفي ذلك يقول ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانية : لا تم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة، ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر . والاحتساب والشجاعة والورع، والخبرة التامة بآداب العرب والبلاغة، ومن أهله وأصحابه رضي الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس، وكراهية الحياة من بعده، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة ما لم يشاهد مثله . ووقع النهب والسلب في عسكره وذراريه عليهم السلام ثم حمل النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة " .

هذا وقد وجد بجسمه عليه السلام ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة، وقد انتدب عشرة من الفرسان فداسوا بخيولهم على جنته، ثم حزوا رأسه وطافوا بها على خشبة في أنحاء الكوفة ثم أرسل

أهل بيته من النساء والصبيان إلى يزيد ابن معاوية كما أرسل إليه رأس الحسين فأمر بصلبها في الكوفة ثلاثة أيام متتابعة وعندما دخلت السيدة زينب رضي الله عنها على يزيد بن معاوية وجدته يعبث في رأس الحسين بعصاه وهو ينشد بعض الأبيات التي تظهر حقده و تبين ضغينته .

وعندما قتل الحسين صعد ابن زياد المنبر وخطب في الناس قائلا : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » فما أن سمع عبد الله ابن عفيف الازدي هذا القذف العلني حتى قام على المنبر قائلا : « يا عدو الله، أن الكذاب انته وأبوك والذي ولا وأبوه تقتل أولاد النبيين، وتقوم على المنبر مقام الصديقين »

والباحث في مصرع الحسين يجد أنه ق د قتل نتيجة لخداع أهل العراق، وأنهم استقدموه لديهم لتنفيذ خطتهم، والانتقام منه . كما أن وقت تنفيذ القتل، كان عقب الهدنة مباشرة وفد تكون الحرب خدعة ولكن الطريقة التي نفذ بها قتل الحسين كانت من أبشع الجرائم التي عرفها التاريخ، وكانت انتهاكا لحقوق الإنسان، وإهدارا لكرامته في الحياة والموت .

ويرى السير وليم ميور Willriam muir ومن لف لفه من المؤرخين أن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعيا وراء العرش قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع الإسلامي وتطلبت من أولى الأمر في الدولة

الأموية التعجيل بقممها، ولكني أرى أن هذا التنفيذ كان مخالفا لكل ما جاءت به الشرائع بل كان في ذاته الجريمة الكبرى فقد استدرج الحسين إلى موضع تنفيذ الجريمة، تم قتل غيله في كربلاء .

وهذه الجريمة تستحق القصاص في الشريعة الإسلامية فالله جل جلاله يقول في كتابه العزيز « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الظالمون، كما قال في سورة البقرة آية ١٩٤ : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم

ولم يشهد التاريخ الإسلامي جريمة أفظع من قتل الحسين. بل لم يشهد حاكما ظالما يعلق جثه خصمه في أحد الميادين ثلاثة أيام متتابعة . بل يعلق رأس خصمه في احد الميادين ثلاثة أيام متتابعة بل يعلق رأس خصمه بعد أن يفصلها عن جسده هذه الفترة من الأيام بعد أن ينهش بعصاه هذه الرأس أمام أقرب المقربات إليه وهي السيدة زينب عليها السلام

،ولو أننا أمسكنا خيط الجريمة من أوله لوجدناه يقوم على خطة التآمر والانتقام، التي تنبه لها بعض خلصاء الحسين وأصفيائه فحاولوا صرفه عن الذهاب إلى العراق ولكنه بحسن نيته وإخلاص طويته حسب أن زعماء العراق لن يخذلوه ! وخذله زعماء العراق وكانت مؤامرة وكانت لها قصة !!

المؤامرات في العصر العباسي :

ولم تنم الفتن في مرقدها طيلة حكم الأمويين بل ظلت الدسائس والمؤامرات تدبر في الظلام وتعمل على تقويض دولتهم، وبدأت الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحميمية تدعو للعباسيين وذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، ورجه محمد بن على العباسي الدعاة إلى الولايات الإسلامية فوجه بعضهم إلى العراق ووجه بعضهم إلى خراسان ووجه الآخرين إلى شتى أطراف الدولة الإسلامية وهناك شرع هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية في الخفاء وظاهر أمرهم التجارة أو الحب إلى مكة واختار أبو عكرمة السراج من الدعاة العباسيين داعبا، وشمر الجميع عن ساعد الجد في بث الدعوة العباسية، ولم يبالوا بما لا قوة من ضرب أو صلب أو قتل أو تشريد وعندما مات الإمام محمد بن على العباسى عام ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) جاء بعده ابنه إبراهيم . فوضع على عاتقه النهوض بهذه المهمة، واستعان بأبي مسلم الخراساني الذي كان له اليد الطولي في قيام الدولة العباسية وقد ظل أمر الدعوة العباسية مكتوما بيد أنه أخذ ينتشر في الخفاء حتى ضبط في حوزة إبراهيم الإمام كتاب إلى أبي مسلم الخراسانى يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان فادي هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم الإمام ووضعه في غياهب سجون حران، وقتله، فتولى شئون الدعوة العباسية أخوه أبو العباس عبد الله ابن محمد وعاونه في تنظيمها أبو سلمة الحلال .

واستطاع العباسيون على أثر ذلك هزيمة الأمويين في الكوفة وخفق

العلم الأسود شعار العباسيين فوق مصبون دمشق عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م، واقتفى العباسيون آثار مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حتى لحقوا به في قرية تسمى « بو صير » من أعمال الفيوم بالوجه القبلي وهنالك قتل مروان، واحتز رأسه، وأرسل إلى السفاح في الكوفة فسجد شكرا لله على أخذه الثأر لأخيه إبراهيم الإمام وانتهى سلطان بني أمية، ونجحت الدولة العباسية في قيام الدولة الجديدة تلك الدعوة التي لم تكن سوى مؤامرة من المؤامرات التي دبرت في الخفاء ثم شاءت لها الظروف ان تظهر وان تمتد وأن تجد لها أعوانا وأنصارا، يؤمنون بها أشد الإيمان، ويدافعون عنها اصدق الدفاع حتي تم النصر للدعوة العباسية وتأسست دولة العباسيين على يد أبي العباس

مؤامرة البرامكة :

ولم تخل هذه الدولة التي دامت خمسة قرون - بدأت من عام ١٣٢ هـ وهو العام الذي تولى فيه أبو العباس السفاح الخلافة ودالت عام ٦٥٦ هم حين سقطت بغداد في أيدي التتار - من مؤامرات شتى دبرت في الظلام، ولعل أبرز مؤامرة ألمت بها هي مؤامرة البرامكة، وهي مؤامرة اشترك في تدبيرها الخليفة هارون الرشيد ليسترد سلطانه المنتصب، وبدعم نفوذه، ويقوي مركزه، فالعرش في هذه المؤامرة هو الجاني وليس المجني عليه كما هي العادة في أغلب المؤامرات العباسية .

أما قصة هذه المؤامرة، فتتلخص في أن الرشيد كان يستعين بالبرامكة في تدبير أمور ملكه وكانت أسرة البرامكة مجوسية تدين بديانة الفرس القديمة فلما ظهر الإسلام، اعتنقته، وظهر منها خالد بن برمك، الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والمنصور، ويحيى بن خالد البرامكي الذي كان كاتبا لهارون الرش يد وكان صفيه وجليسه يرجع إليه في شتى أمور الحكم، ويعتمد عليه في مختلف شئون الرعية وقد قام يحيى كما يقول ابن طباطبا : « بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور، وتدارك الخلل وجبى الأموال وعمر الأطراف وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة، فأثار حوله الحقد والحسد لما بلغه من منزلة رفيعة، ومكانة مرموقة عند هارون الرشيد.

كما استعان الرشيد بجعفر بن يحيى البرمكى وكان يأنس إليه لسهولة أخلاقه ويؤثره على أخيه الفضل الذي اشتهر بغلظة الطباع، حتى قيل أن الرشيد قال يوما ليحيى : «يا أبي ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير، ولا يسمون جعفر بذلك؟ » فقال يحيى : « لأن الفضل يخلفني، فقال : فضم إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل، فقال يحيى : ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك، فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمى بالوزير الصغير أيضا، ونقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر.

وهكذا كانت أسرة البرامكة تتغلغل في خدمة عرش هارون الرشيد . ومن هنا تارت حولها الفتن والإشاعات، ووجد عمال السوء مجالا فسيحا لبث وشاياتهم في أذن هارون الرشيد فنقم عليهم أشد النقمة،

وانتهز الفرصة المواتية للتخلص منهم، وسبق ذلك ان اصدر أوامره إلي غلمانه بالأعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره، ومن ذلك ما رواه الطبرى لا دخل يحيي بتن خالد على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد مسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيي إذا دخل الدار قال: فدخل علم يقم إليه أحد . فاربد لونه، وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه فكان ربما استسقى التربية من الماء أو غيرهم ولا يسقونه . وبالحري أن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارا " .

ومن الأسباب التي ذكرها أعداء البرامكة لهارون الرشيد الانتقام من هذه الأسرة. وإشراكه في تدبير مؤامرة للتخلص منهم اتهامهم بالزندقة والميل إلى دين الجوس، وعبادة النار، إذ احتالوا وقالوا للمسلمين : ينبغي أن تجمر المساجد كلها، وان تكون في كل مسجد مجمرة، يوضع عليها الند والطيب، وكانوا قد أمروا بوضع مجمرة في جوف الكعبة، فأول الأعداء ذلك بأنهم رموا إلى أن تكون الكعبة بيت النار، وحدث في هذا الوقت ان أذن الرشيد لوزيره جعفر بالزواج من أخته العباسة حتى تحضر مجلسه لكلفه بها، واشترط عليه أن يكون الزواج دون الخلوة، بيد أن جعفراً هام حبا بالعباسية وعاشرها حتى أنجب منها مما أثار غضب الرشيد عليه لمخالفته لأمره . كما حدث أن أطلق جعفر سراع يحيى بن عبد الله من زعماء الشيعة دون إذن الرشيد و كان الرشيد على حد تعبير ابن خلدون، يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فقلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانة، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، وكانت زبيدة أم المؤمنين تكره البرامكة ظنا منها أن يحيي هو الذي دفع

بولاية العهد للمأمون دون الأمين.

لهذه الأسباب ولغيرها عول الرشيد على التخلص من أسرة البرامكة، وفي مستهل عام ١٨٧ هـ (٨٠٣م) أصدر الرشيد أوامره بإعدام جعفر والقبض على أبيه وأخوته، ويروى الجهشيارى في كتابه "الوزراء والكتاب، بقية المأساة فيقول . ولا عاد الرشيد من الحج سار من الحيرة إلى الانبار في السفن وركب جعفر بن يحيي إلى الصيد، وجعل يشرب تارة، ويلهو أخرى، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه، وعنده بختيشوع الطبيب، وأبو ذكار الأعمى يغنيه، فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضا الجعفر وقال : اذهب فجئني برأس جعفر ولا تراجعني فوافاه مسرور بغير إذن، وهجم عليه، وأبو ذكار يغنيه :

فـلا تبعـد فكـل فتـى سـيأتي عليـه المـوت يطـرق أو ينـادى

فلما دخل مرور قال جعفر بن يحيى البرمكى : لقد سررتنى بمجيئك، وسوتني بدخولك على بغير إذن، فقال : الذي جئت إليه أعظم، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك فوقع على رجليه فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين، فان الشراب ق د حمله على ذلك، وقال : دعني أدخل دارى، فأوصى فقال : الدخول لا سبيل إليه، وأما الوصية فأوص بما بذالك . فأوصى . ثم حمله إلى منزل الرشيد، وعدل به إلى قبة، وضرب عنقه، وأتي برأسه على ترس إلى الرشيد، وببدنه في نطع، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته، وأصحابه، بالرقة – اسم مكان – – واستأصل شأفتهم".

وهكذا تخلص الرشيد من هذه الأسرة، والمعروف أنه صادر جميع أموالها من منقولة وثابتة، وتشاء الظروف أن تدبر في ذلك الوقت مؤامرة لنزع ملك الرشيد، ويتهم البرامكة بالاشتراك فيها فيزداد سخط الرشيد عليهم، فيموت الوزير يحبي البرمكى في السجن هما وغما ويتبعه الفضل بعد ذلك بثلاثة أعوام ١٩٣ هـ .

ونكبة البرامكة من أشهر المؤامرات التاريخية التي دبرت في هذه العصور، وكان للعرش يد طولي في تنفيذها والواقع أن كراهية هذه الأسرة لم تكن سوى كراهية العربية لهذا العنصر الدخيل الذي تغلغل في الحكم العربي وقد ظهرت بوادر هذا الامتعاض منذ عهد المنصور، والمهدي، والهادى

قتل ابن المقفع الكاتب الطوسي :

ويكفي أن نذكر تلك المؤامرة التي دبرها أعداء الكاتب الفارسى ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة وغيرها من روائع الأدب الفارس والهندي لقتله، فقد اتهمه أعداؤه لدى المنصور بالزندقة والمروق عن الدين، والمرور ببيت النار، بيت المجوس ؟ كما اتهمه أعداؤه بالتحريف في كتاب الأمان الذي كتبه لعبد الله بن على م ع أنه احترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه، وكان عبد الله بن على قد خرب علي المنصور، نر استقر الرأي بينهما على الأمان، ويقال ان أبي المقفع شدد في هذا الكتاب الأمان . وغلظ الإيمان على أمير المؤمنين . فطلق نساءه، واعتق

عبيده، وأحل الناس من بيعته أن نكث عهده لعمه عبد الله أو غدر به، فأحفظ ذلك المنصور وأسرها في نفسه لابن المقفع.

وكان سفيان بن معاوية من أشد الناس كراهية لابن المقفع، ورأس هذه المؤامرة المدبرة لقتله والتخلص منه، وكان ابن المقفع، يكره سفيان كذلك ويسخر منه سخرية شديدة، وكان سفيان يضطعن عليه الأشياء أخرى كثيرة منها أنه كان يهزأ به ويسأله تعن الشيء بعد الشيء فإذا أجاب قال له : أخطأت . ويضحك، فلما كثر ذلك على سفيان، غضب، فافترى عليه، فقال له ابن المقفع : يا بن المعتلحه ! والله ما اكتفت أمك برجال أهل العراق حتي تعدتهم لأهل الشام !

وساعد أبو أيوب المورياني أحد علماء ذلك العصر سفيان بن معاوية في تنفيذ خطته فمضى يسر في أذن المنصور بوجوب التخلص من ابن المقفع، وكان أبو أيوب يحقد حقدا شديدا على مكانة ابن المقفع من المنصور، وتألم أشد الألم حينما قال له أبو جعفر المنصور ذات يوم وقد أنكر عليه شيئا : كأنك تحسب أني لا أعرف موضع اكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاي، فلم يزل أبو أيوب خائفا منه يسعى ويدب في أمره حتى قتله .

لهذه الأسباب ولغيرها، نقم المنصور على ابن المقفع، وأصدر أمره بإعدامه، واقتيد ابن المقفع إلى مقصورة كبيرة، ولما رآه سفيان بن معاوية قال له : وقعت والله ! فأجاب ابن المقفع : أنشدك الله ! فمال سميان .

أمي معتلحه، كما ذكرت، ان لم أقفلك قتلة لم يقتل بها أحد قبلك، فأجاب ابن المقفع : انك لتقتلني، فتقتل بقتلى ألف نفس، ولو قتلى ألف مثلك ما وفوا بواحد ث م أنشد قائلا :

إذا ما مات ملي مات شخص | يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري | بموتك لا الصغير ولا الكبير

وهكذا تمت هذه المؤامرة التي دبرت للتخلص من ابن المقفع وعندي أن هذه المؤامرة لم تكن سوى مؤامرة سياسية دبرت ضد سلطان الفرس، إذ بدأ نفوذهم يزداد في العصر العباسي بشكل واضح ملموس في شتى ميادين السياسة والأدب والعلم، مما سبب الضيق للعرب الذين كانوا يريدون أن تخلص لهم أمور الدولة جميعا، ولا يبدو هناك أي أثر للنفوذ الأجنبي الدخيل –

ولقد كانت الزندقة تكأة يتخذها الخلفاء للتخلص ممن لا يرتاحون إليه، فأتهم بالزندقة أناس كثيرون منهم بشار بن برد ومطيع ابن إياس، وحماد عجرد، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم.

وأمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقداتهم في خلافته لم ا انتشر من كتب مانى وابن ريصان ومرقيون وغيرها من كتب الفرس . وكان بعض هؤلاء الملحدين ملحدين حقا، وأما الآخرون فأخذوا بالشبهات أو الزور . إذ اتخذ بعض الناس الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء أكانوا من الشعراء

والعلماء أم الولاة والأمراء.

الصراع بين العرب والموالي :

وقد بدا الصراع بين العرب والموالي منذ صدر الدولة العباسية إذ أنه لما جاء الإسلام تكونت للعرب أمة . وكانت فيها خصائص الأمة من اتحاد لغة و دين وميول وكانت هناك حكومة على رأسها حاكم واستطاعت الانتصار على أضخم أمتين في ذلك العصر وهمسا الفرش والروم . ولكن لم يلبث أن تغلغل العنصر الفارسي في الأمة العربية، ورأينا بعد ذلك نصر بن سيار ينبه العرب إلى أن الفرس تريد أن تهلك العرب فأولى أن يتحد العرب كما أتحسد الفرس . بل رأينا الأمر يصل إلى أكثر من ذلك فقد اتفقت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب والاجتماع على مقاتلة أبي مسلم الخرساني ولكن أبا مسلم الخراساني وقومه استطاعوا الانتصار بإشعال نار الفتنة والفرقة بين العرب من جديد ، فلما جاءت الدولة العباسية ازداد نفوذ الموالى، وامتلأت قصور الخلفاء بهم، واستخدمهم الخلفاء في أعمال شتى و قصرت المراكز الكبيرة بالوزارة على الفرس، وتفشت التقاليد والعادات الفارسية في الدولة كأحياء يوم النيروز، ولبس القلنسوة، وظهر كتاب أدباء فرس ارتفع صيتهم وعلا ذكرهم عن الأدباء العرب .

حينئذ وجد العرب أن الخطر مستطير، وأن الأمر لا يسكت عليه، وساعدت الظروف على تنفيذ هذه المؤامرة.

مؤامرات الحرس التركي في الدولة العباسية :

وهكذا ظلت المؤامرات سلاحا من أسلحة الحكم في العصر العباسي سواء أكانت تدبر من الرعية أم الخلفاء، وما أن انتصف القرن الثالث الهجري حتى تفشت دواعي الانحلال في الدولة العباسية، وأخذ نفوذ الحرس التركي يتغلغل في الحكم تغلغلا واضحا، وكثرت المؤامرات والدسائس في القصر وحوله، وبدأ الخلفاء يسقطون نتيجة لها خليفة اثر خليفة وعندما تولى المتوكل على الله الخلافة (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر، لمحبته لقبيحة أم المعتز واستجابة لتلك الدسائس والوشايات التي دبرت ضد المنتصر والمؤيد، فغضب المنتصر لهذا القرار ودبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه، وحاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق ولكنهم أخفقوا في تنفيذ المؤامرة بفضل بغا الكبير والفتح بن خاقان، فاتفق "بغا الصغير" مع "باغر التركى" على قتل المتوكل فضربه بالسيف واستقرت الخلافة لابنه المنتصر.

وبعد دلك خلع المستعين بالله وولي المعتز بفضل مؤامرة د برما الحرس التركى عام ٢٥٢ هم، أما الخليفة المقتدر فقد خلع مرتين وغلب على أمره وذبح في النهاية، وضاعت في عهده إفريقيا وأوشكت مصر أن تضيع، واستقل أمراء حمدان بالموصل . واستطاع البيزنطيون أن يشينوا غاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة، وأصبح الأمر والنهي بيد أمه وكانت تسمى (السيدة) وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا

غضبت هي أو قهرمانتها، من أحد الوزراء كان مصيره العزل من غير شك، وبلغ من عظم نفوذها أن عنيت قهرمانتها "ثومال" صاحبة للمظالم. وأدى تدخل النساء في أمور الدولة إلى ضعفها وتأخرها وتدهورها إلى الحضيض .

وكان نتيجة لذلك أن دبرت المؤامرات لاغتيال المقتدر وكان رأس المؤامرة مؤنس الخادم الذي قتله وترك جثته مكشوفة بضعة أيام حتى دفن بالموضع الذي مات فيه وذلك يوم الأربعاء لثلاث يقين من شوال عام ٣٢٠ هـ . وهكذا أردت المؤامرة السياسية بكيان هذه الدولة ! .

الفصل الثالث

مؤامرات من العصرين الفاطمي والأيوبي

نتناول في هذا البحث المؤامرات التي دبرت في العصرين الفاطمي والأيوبي، وقد دبرت الأولى للتخلص من حياة الحاكم بأمر الله الفاطمي، كما دبرت الثانية لإنهاء حياة صلاح الدين الأيوبي . ونجحت الأولى بينما فشلت الثانية، لان الأولى كانت تنبع من بغضى الشعب، وإرادة الطبقات الحكومة التي ترسف٥ في أغلال الظلم، و تئن تحت أثقال الاستعباد، أما الثانية فقد فشلت لأنها كانت إرادة فردية لا إرادة المجموع، و كانت تنبع من نفوس مريضة، وقلوب خاوية، وتصدر عن صدور أعماها الغل، وأضلها الحقد، وذهب برشادها، فمضت تدبر في الظلام وتنسج خيوط الفتنة، ولكن القدر كان لها بالمرصاد فباءت بالفشل الذريع، وكان مصيرها الخذلان المبين.

وقبل أن نستعرض المؤامرة التي دبرت لاغتيال الحاكم بأمر الله . والصورة التي تمت فيها : نبحث عن الأسباب التي دعت إلى خروجها إلى الوجود واستدعت الاتفاق على تنفيذها وضرورة تحقيقها مهما عاني المؤتمرون في سبيلها من مشكلات وعوائق ومهما كان المصير الذي ينتظرهم محفوفة بالمخاطر والمهالك .

سياسة الفتك والإرهاب في عهد الحاكم بأمر الله :

كان الحاكم بأمر الله مثالا للحاكم المستبد الجبار، وقد ولى شئون مصر وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه "برجوان" الخادم ولكن لم يلبث أن غضب الحاكم على برجوان وألب عليه رجال القمر وذات يوم استدعي الحاكم بأمر الله : الحسين بن جوهر قائد القواد وعهد إليه بمهمة قبل برجوان واتفق معه أن يطلبه في القصر ذات مساء، ولما جاء نى الموعد المحدد لتنفيذ الجريمة، استدعى الحاكم بر جوان للركوب معه. وانتظره في بستان نهر اللؤلؤة الذي يقع على الخليج و كان معه ريدان حامل المظلة فوافاه بر جوان هناك وبعد أن سلم على الحاكم مسار معه حتى خرج من باب البستان فوتب ريان حينذاك على برجوان وطعنه في عنقه بسكين وانقضت عليه جماعة من أتباع ريدان وأثخنوه صربا بالخناجر فسقط على الأرض يتضرج في بركه من الدماء، وأخذ المؤتمرون رأسه، ودفنوه حي قتل في ربيع الثاني عام ٣٩٠ هـ (ابريل عام ٩٩٩ م)

وهكذا شهدت السنوات الأولى من عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى سياسة الفتك وسفك الدماء، والتخلص من الخصوم بأبشع الذرائع وأدنأ الطرق، وقد عمت الفوضى في البلاد من جراء مقتل برجوان واضطرب الأمن ؛ وساد الشغب، وخرج ريان يصيح في الجماهير الملتفة حول الجثة : (من كان في الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور) وانصرف الناس منزعجين وفي نفس المساء اتخذ الحاكم

أهبته لإصدار الأوامر، ومصادرة أموال برجوان الطائلة واختفى أصدقاؤه من الميدان .

ولم تمض على هذا الحادث الأليم فترة وجيزة حتي ضرب الحاكم بأمر الله ضربة أخرى لا تقل قسوة ولا عنفا عن الضربة الأولى، وهى تدبير مؤامرة لقتل : الحسن بن عمار، زعيم قبيلة : كتامة، وأمين الدولة السابق، وكانت قبيلته أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها فخلاف الحاكم من نفوذه وعصبيته، ودبر مؤامرة للتخلص منه، وقمع شركته، وفي ذات مساء حين انصرافه من القصر، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قسد تربصت للفتك به، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم.

ولم تمض ثلاثة أعوام على مصرع ابن عمار حتى قتل الحاكم وزيره (فهد بن إبراهيم النصرانى) بعد أن قضى في منصبه ما يقرب من ست سنين، وعين الحاكم بدلا منه على بن عمر العداس ولكن مصيره لم يكن أحسن من مصير سابقه ؟ فغضب عليه الحاكم وقتله، وقتل معه الخادم "ديدان"، الصقلبي حامل المظلة، ثم قتل عددا كبيرا من الغلمان والخاصة، ونذكر ممن كانوا من ضحاياه القاضي الحسين بن النعمان الذي قتل وأحرقت جثته . ومن الأساليب الوحشية التي كان الحاكم يستخدمها في تعذيبه ضحاياه القتل جوعا (فقتل جماعة من الأعيان صبرا)

وفي عام ٣٩٩ هي ألقي الحاكم القبض على عدد كبير من الكتاب والخدم في القصر وأمر بتعذيبهم وقتلهم، فانقض عليهم رجاله وقطعوا أيديهم وأذرعهم ثم أزهقوا أرواحهم وقتل الفضل بن صالح وكان من خيرة رجال الجيش المحنكين وقواده المدربين . وقطع يد صاحب الشرطة والحسبة و غين، و كان من الخدم الصقالبة الذين تفانوا في خدمة الحاكم وتنفيذ أوامره .

كما أمر الحاكم بقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان وعبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخيه الحسين صاحب الوساطة والسفارة .

وهكذا توالت سياسية الفتك والإرهاب في عهد الحاكم بأمر الله، وأصبح القتل أو الاغتيال السياسي، أمرا عاديا يحدث بين يوم وآخر بل بين ساعة وأخرى، و تطلع الناس إلى الخلاص من هذا الظلم الذي يعيشون بين أكنافه وهذا الاستعباد الذي يذوقون كئوسه غداقا . ولكن الحاكم بأمر الله كان يقبض على السلطة بيد من حديد، ويبعث من عيونه وأنصاره في كل مكان ويهدد الخارجي عليه والشاقين عصا طاعته بالويل والثبور وعظائم الأمور .

تناقض شخصية الحاكم بأمر الله :

وكانت شخصية الحاكم نفسه مزيجا من الإبهام والغموض، والاضطراب والقلق وكانت أخلاقه تجمع بين المتناقضات، فمن شجاعة وإقدام إلي جبن وأحجام ومن محبة للعلم إلى انتقام من العلماء، ومن

ميل إلى الإصلاح إلى ميل للفساد ". وقد لزم ارتداء الصوف سبع سنين وامتنع عن دخول الحمام، وأقام سنتين يجلس في ضوء الشموع ليلا ونهارا ثم تاقت نفسه أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة . وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة ومعاوية وعمرو بن العاص، وأمر بقتلى الكلاب وبيع الفقاع، وهو شراب يتخذ من الشعير وسمي بذلك لما يرتفع فيه الزبد، ثم نهى عنه ونهى عن النظر إلى النجوم وكان ينظر فيها، ونفي المنجمين وكان يرصد النجوم وزحل والمريخ وغيرهما من الكواكب وقيل أنه كان يستمد سياسة سفك الدماء من طوالع هذه النجوم . ومنع الناس من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، وقطع الكروم ومنع بيع العنب، ولم يبق في ولايته كرم، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر خوفا من أن يستخدمها الناس في صناعة النبيذ وحرم أكل الملوخية والسمك وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها، وألبس اليهود العمائم السود، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين في سفينة، وألا يستخدموا غلاما مسلما، وألا يركبوا حمار مسلم، ولم يبق في ولايته ديرا ولا كنيسة إلا وهدمها ونهي سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب . ثم جمع منه شيئا عظيما وأمر بإحراقه.

وأولع الحاكم بأمر الله بالليل ؛ فأمر الناس بالاستيقاظ في الليل وأمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط، وخصص "العسض" للإشراف على تنفيذ هذه الأوامر في أمانة ودية ؟ وعوقب المخالف بالشدة .

ومنع الحاكم بأمر الله النساء الخروج بالليل بعد أن ازداد الفسق في البلاد، وكثرت جرائم هتك العرض والتحريض عسلى ارتكاب المنكرات، ولم يلبث أن أصدر أوامره عقب ذلك بمنع النساء الخروج إلى الطرقات سواء بالليل أو النهار ولم يستثن من ذلك غير النساء المتظلمات للشرع أو الخارجات إلى الحج أو المسافرات أو القابلات أو غاسلات الموتى أو نحو ذلك ومنع النساء من دخول الحمامات العامة، وأمر الأساكفة بعدم عمل أخفاف لهن، وأمر الباعة ان. يجولوا بالأزقة والحارات للبيع للنساء وظل النساء يعانين هذه المحنة طيلة سبعة أعوام.

إدعاء الحاكم النبوة وغضبة الشعب :

وادعي الحاكم بأمر الله النبوة وأصدر بعض الفتاوى باسم " الحاكم الرحمن الرحيم " وشاع خبر ادعائه للنبوة ونقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لاقوه قالوا السلام عليك يا واحد يا أحد أيا محيي يا مميت ! وصارت له جماعة من الدعاة ينعون ، أو باش الناس "

وإزاء هذا كله ازداد غضب الشعب على الحاكم بأمر الله، وأخد الناس يسخرون منه، ويستهزئون بحكمه، ويستخفون بمحضره وكان المصريون موتورين منه فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالنساء عليه، والسب له ولأسلافه، وبلغ من تهكمهم عليه أن صنعوا له تمثال امرأة من قراطيس نجف وأزرار ووضعوه في طريقه حتى يظن أنها امرأة تقدم إليه شفاعة أو مظلمة، فتقدم الحاكم وأخذها من يدها فلما فتحها رأي فيها ما أثار الدماء في عروته، وما استعظم أن يجده في رقعة من الورق

فالتفت وقال : انظروا هذه المرأة . من هي ؟ فقيل له أنها مصنوعة من قراطيس، فعلم أنهم سخروا منه ورانت الكآبة على وجهه وقفل راجعا لتوه إلى القاهرة .

تدبير مؤامرة اغتيال الحاكم :

وكانت ست الملك أخت الحاكم من أشد المتذمرين من حكمه، وكانت تتحين الفرص لخلاص منه، ولا سيما لان الحاكم كان يشدد الخناق عليها، ويراقبها مراقبة دقيقة، وينعي عليها سوه ستلوكها وكثرة فضائحها، وكان يهددها بإنفاذ القوابل إليها لاستبرائها مها أوغر صدرها، وزادها حنقا وغيظا فراسلت "سست الملك ابن دواس – وكان من شيوخ قبيلة كتامة المغربية وأعيانها مع بعض خدمها وخواصها وهي تق ول له : إلى إليك أمر لابد لي فيه من الاجتماع بك، فأما تنكرت وجئتني ليلا؛ أو فعلت أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك، فلم يكفها هـ ذا الكلام، ولم يبعث الطمأنينة في نفسها بل توجهت إليه ليلا في داره متنكره ولم تصحب معها أحدا، فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها ووقف في خدمتها، فأمرته بالجلوس ثم قالت : يا سيف الدولة قد جئت في أمرأ حرس به نفسي ونفسك والمسلين، ولك فيه الحظ الأفر وأريد مساعدتك فيه فقال : أنا عبدك : فاستحلفته، و استوثقت منه وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخي منك وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك، و كذا أنا، ونحن على خطر عظيم . وقد أضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة، وناموسى آبائه، وقد زاد جنونه، وأنا

خائفة أن يبرد المسلمون عليه و نتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أوبر انقضاء فقال سيف الدولة بن دواس : صدقت يا مولاتي . فما الرأي ؟ قالت « اقتله فتستريح منه فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال و كنت أنت صاحب جيشه ومديره، وشيخ الدولة القائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب وليس غرضي إلا السلامة منه، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة".

ثم أقطعته سبت الملك اقطاعات واسعة من الأرض، ووعدته بالخلع و المراكب السنية، فقال لها عند ذاك : مرى بأمرك . فقالت : أريد عبدين من عبيدك تثق بهما في سرك وتتفق معهما في انجاز المهمة، فأحضر ابن دواس عبدين وصفهما بالشهامة فاستحلفتهما ست الملك ووهبتهما ألف دينار ومجموعة من الثياب والخيل والإقطاعات ونحو ذلك وقالت لهما : أريد منكما أن تصعدا غيا إلى الجبل فان الحاكم سيخرج في نوبته ولن يبقى معه عير القرافي الركابي وربما رده. وسيدخل شعب الجبل وينفرد بنفسه فأخرجا عليه واقتلاه، واقتلا القرافي والصبي ان كانا مع وأعطتهما ست الملك سكينين من عمل المغاربة تسمى الواحدة منهما . يافورت، ولها رأسى كراس المبضع الذي يفصد به الحجام ورجعت الى القصر وقد أحكمت الامر وأتقنته ووقفت تراقب تنفيذ المؤامرة من قصرها المواجه لقصر الحاكم .

ولم يجد ابن دواس غضاضة من الاشتراك في هذه المؤامرة إطاعة لأمر سست الملك من ناحية ولعداوته الشخصية للمحاكم من ناحية

أخرى . ومما يظهر أثر هذه العداوة أن الحاكم استدعاه ذات يوم إلى قصره ويعول على قتله فقال له ابن دواس : ق د خدمت أباك ولى عليكم حقوق كثيرة يجب لمثلها المراعاة وقد قام في نفسي أنك قاتلي فأنا مجتهد في دفعك بغاية جهدي وليس لك حاجة إلى حضوري في قصرك فان كان باطن رأيك مثل ظاهره فنعني على حالي، فانه لا ضرر عليك في تأخري عن حضور قصرك وان كنت تريد بي سوءا فلان تقتلني في داري بين أهلي وولدي يكفنونني ويتولونني أحب إلي من أن تقتلني في وتطرحني تأكل الكلاب لحمى ".

وقد عفا عنه الحاكم في هذه المرة بيده أن أثار هذه اله لا تزال تقلقه وتؤرقه ؛ وتزلزل أقدامه زلزالا شدينا : فلن للحاكم ثائرة حتى يتخلص منه على التخلص ويسلمه إلى المر.

ولذلك نفر ابن دواس إلى تنفيذ هذه المؤامرة بصدر رحب ونفس راضية وأمر العبدين بالاستعداد لتحقيقها .

نجاح المؤامرة :

وفي الليلة المحددة لتنفيذ الجريمة تأخر الحاكم في الخروج والطواف، وسبب ذلك أنه كان قد رأى في طالعه شيئا مشئوما فصرح بذلك إلى والدته، وكانت تعبده وعبنها حبا، فتضرعت إليه ألا يخرج فوعدها بذلك، بيد أنه ظل في سريره أرقا لا يزور النوم جفنيه، ويلم به السهاد، وشعر بضيق شديد، في مدره وعبء نقيل يرخي عليه، حتى

مضى من الليل تدشاه ؛ وحينئذ لم يطق الحاكم صبرا، ونهض ضجرا وانطلق إلى خارج القصر، وامتطى صهوة حماره الأشهب، وكان يؤثر رنوب الحمير ولا سيما الشهباء منها وتبعه كعادته "أبو عروس" صاحب العسس أو "كبير الشرطة" ودقت له الطبول ونفخ في الأبواق . ولما خرى الحاكم من درب السباع طلب من صاحب العسس أن ينسحب كما رد نسيما صاحب التواليف ولم يصحبه سوي اثنين من الركابية الذين يصحبونه لمعالجة شئون الدواب التي يركبها؛ وشرع يتوغل في شعاب جبل المقطم، وقد حكى أبو عروس قبل أن يفارقه أنه صعد، الجبل ووقف على تل كبير ونظر إلى النجوم وقال : أنا لله وإنا إليه راجعون وضرب بيد على يد، وقال : ظهرت يامشئوم ؛ ثم سار في الجبل فعارضه عشرة فوارس من بني قرة وقالوا : قد طال مقامنا على الباب وبنا من الفاقة والحاجة ما نسأل معه حسن النظر والإحسان، فأمر الحاكم . القرافي، أن يحملهم إلى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم، فقالوا لا : نعل مولانا ينكر تعرضنا له في هذا المكان فيأمر بنا بمكروه ونحن نريده الأمان قبل الإحسان، نما وقفنا إلا من الحاجة : فأعطاهم الأمان ورد القرافي معهم، وبقي هو والصبي، وسار إلى شعب الجبل الذي جرت عادته بدخوله ؛ وقد كمن العبدان الأسودان له، وقد قرب الصباح، فوثبا عليه . وطرحاه إلى الأرضي فصاج : ويلكما ما تريد ان ؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه، وشق جوفه . وأخرجا ما فيه، ولناه في كسماء ؛ وقتلا الصبي : وحملا الحاكم إلى ابن دواس بعد أن ثبتا الحمار، فحمله ابن دواس مع العبدين إلى أخته ست الملك فدفنته في

مجلسها، وكتمت أمره، وأطلقت لاين داوس والعبدين مالا كثيرا وتيابا وأحضرت خطير الملك صاحب ديوان الإنشاء، وعرفته الحال، واستحلفته على الطاعة والوفاء وأوصته بمكاتبة ولى العهد ابن الحاكم وكان مقيما بدمشق في هذه الآونة.

رواية تاريخية أخرى في مصرع الحاكم :

وقد روى القضاعي في مصرعه وجها آخر فقال : خرج الحاكم إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال هده السنة (سنة إحدى عشرة وأربعمائة هجرية) فطاف ليله كلها . وأصبح عند قبر الفقاعي تم توجه شرقي حلوان « مرصع بالمقطم، ومعه ر كا بيان فرد أحدهما مع نفر من العرب وأمر لهم بجائزة، ثم عاد الركابي الآخر وذكر أنه فارقه عند قبر الفقاعى والقصبة وأصبح الناس على رسمهم، فخرجوا ومعهم الموكب والقضاة والأشراف والقواد عند الجبل إلى آخر النهار ثم رجعوا إلى القاهرة، ثم عادوا ففعلوا ثلاثة أيام متوالية ثم خرج مظفر صاحب المظلة ونسيم صاحب الستر وابن مسكين صاحبة الرمح وجماعة من الأولياء من بني كتامة والقضاة وأرباب الدولة فبلغوا دير القصر بالقرب من حلوان وأمعنوا في الجبل، فبينما هم كذلك بصروا بالحمار الذي كان يركبه الحاكم وقد ضربت يداه بسيف فقطعتا، وعليه سرجه ولجامه، فتتبعوا الأثر، فإذا أثر راجل خلف أثر الحمار، وأثر راجل أمامه، فقصوا الأثر حتى أتوا إلى البركة إلى شرقي حلوان، فنزلها بعض الرحالة فوجد فيها ثيابه وهي سبع حبات مزررة لم تحل أزرارها

وفيها أثر السكاكين فتيقنوا فته، و كان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت ولايته على مصر خمسا وعشرين سنه وشهرا واحدا .

وهكذا لقي الحاكم مصرعه، وتم تنفيذ المؤامرة في الروايتين ونجح المؤتمرون في التخلص من الخليفة الظالم ويذهب بعضى المؤرخين إلى تبرئه ست الملك من دم أخيها ويعتمد هؤلاء المؤرخون على رواية عز الدين المسيحي في تاريخه وقوامها إن رجلا ثائرا في الصعيد أعلن حين القبض عليه أنه قتل الحاكم في جملة أنفس، وأظهر قطعة من جند رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، ولما سأله المحققون عن كيفية تنفيذ الجريمة أخرج سكينا من جيبه وطعن بها نفسه نخر على الأرض قتيلا .

ونحن لا يمكن أن يعتمد على رواية هذا الثائر ونصدق ما صرح به من اشتراكه في تنفيذ المؤامرة وان كنا لا نكذب القصة التي رواها المسيحي من أساسها .

ولكن إجماع كثير من المؤرخين على أستراك سست الملك في تنفيذ هذه المؤامرة دليل على نيتها الأكيدة في وضع حد لحياة أخيها.

ويروى صاحب النجوم الزاهرة أن القواد أرسلوا إليها وسألوها عنه عقب اختفائه فقالت : ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام، وما هنا إلا الخير، فانصرفوا وهم مطمئنون ولم تزل ترتب الأمور و مرق الأموال، وتستحلف الجنة حتى جاء اليوم السابع فألبست أبا الحسن على بن الحاكم أفخر

الثياب، واستدعت ابن دواس وقالت له : المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل إليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمتهما وسعك، فقبل الأرض ووعدها بالطاعة ؛ ووضعت التاج على رأس الصبي وهو تاج عظيم من الجواهر كان تاج المفرجد أبيه ولم يوجد في خزانة أبية مثله وركبت أبا الحسن مركبا من مراكب الخليفة، وخرج بين يديه الوزير وأرباب الدولة، فلما صار إلى باب النصر صباح الوزير : يا عبيد الدولة ! مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم فسلموا عليه فقبلوا الأرض بأجمعهم وارتفعت الأصوات بالتهليل. والتكبير ولقبوه الطاهر لإعزاز دين الله وأقبل الناس عليه أفواجا فبايعوه .

وقد يكون هذه المؤامرة على جانب كبير من القسوة والعنب مما لا تسنده القوانين الموضوعة ولكن قسوة الحاكم وظلمه . وسفكه للدماء، وتقطيعه للأشلاء، وإزهاقه للأرواح كانت تتطلب تدخلا من الشعب حتى يقف عند حده، ولا يتطاول في صلاته وغيه .

وهكذا نجحت هذه المؤامرة التي دبرت في الخفاء، وأسدل الستار على حياة حاكم ظالم ضربت بظلمه الأمثال، وتلهى بذكره السابلة والركبان

مؤامرة اغتيال صلاح الدين وفشلها :

أما المؤامرة الثانية التي نعرضها في هذا البحث في المؤامرة التي دبرت في العصر الأيوبي لقتل صلاح الدين وقد شاء لها القدر أن تبوء بالفشل الذريع، فعقب انسحاب الفرن من معمر في ١٨ يناير سنة

١١٩٩ م بعد أن أدركهم اليأس من الاستيلاء عليها وخانهم التوفيق في وضع أيديهم على خيراتها، أحس شاور أن الميدان قد خلا له وأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من النصر، و نظر حوله فوجد شيركوه وصلاح الدين في جيش لجب جبار جرار . فأدركه الروع، وخاف أن يبطش به الجيش ذات يوم ويقضي عليه قضاء مبرما .

وأخذ شاور يقلب وجوه الرأي وأخيرا اهتدى إلى أن يقيم وليمة ويدعو إليها شيركوه وصلاح الدين وأمر رجاله بالاستعداد الدولية وتجهيز الأطعمة وكان ابن شاور على علم بهذه المؤامرة منذ بدايتها فنصبح أباه بقوله : لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقت ملكه الإفرنج فانه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه"

ولكن أخبار هذه المؤامرة وصلت صلاح الدين فأراد أن يدافع عن نفسه ويتمثل بقول القائل : اقتل عدوك قبل أن يقتلك فاتفق مع عز الدين جرديك على قتل شاور وأخبروا سعد الدين شيركوه بذلك فنهاهم ولكنهم بينوا له الشر المستطير الذي يهددهم. إذا لم يبادروا باستئصال الداء قبل استفحاله، وحدث أن كان أسم الدين في زيارة قبر الإمام الشافعي فانتهزوا هذه الفرصة وانقضوا على شاور . وألقوه عن فرسه وهرب أصحابه وأخذ هو أسيرا . ولم يشاعوا أن يقتلوه بغير إذن من شيركوه فسجنوه في خيمة وأقاموا الحراس لحراسته خوفا من فراره، فلما علم شيركوه بذلك عاد مسرعا ولم يستطع إلا أن يوافق على بقية فصول القصة لا سيما أن العاضد لدين الله الخليفة الفاطمي بمصر أرسل إلى

أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله، و تتابع الرسل في ذلك فقتلوه وحملوا رأسه إلى القصر .

وهكذا يشاء القدر أن نموت هذه المؤامرة التي دبرها شاور ضد صلاح الدين وأسد الدين في مهدها، يشاء القدر أن يرتد السهم إلي نحر مدبريها ويضع صلاح الدين يديه على خيوط المؤامرة قبل تنفيذها، تعتزم على التخلص من رأس الأفعى أو الرأس المدبرة، وتنتهي فصول المؤامرة بمصرع شاور ولم يعد للفرنج أعوان في مصر، ولذلك عمت الفرحة في البلاد بل أن المؤرخ العصامي في "سمط النجوم" يقول ان بغداد طربن لخروج الفرنج من مصر وأغلقت الأسواق وفرح المسلمون فرحا شديدا.

مؤامرات أخرى من عملاء الاستعمار ضد صلاح الدين

ولم يشأ أعوان الفرنج وأذناب الاستعمار أن يجعلوا هذه المؤامرة خاتمة المؤامرات ضد حياة صلاح الدين . فدبروا مؤامرة لاغتياله وأرسل شيخ الحشاشين سنان أحمد جواسيسه ليقتله. نيلة وعدوانا، غ ير أنه لم يكد يصل إلى باب خيمته حتى انقض عليه أحد أنصار صلاح الدين فأرداه قتيلا .

وحدث في أثناء حصار « إعزاز » بالإقليم الشمالي ان كان صلاح الدين يحضر الى خيمة أحد الأمراء على مقربة من المنجنيقات لمشاهدة الآلات . وترتيب المهمات، وحض الرجال والحث على القتال فقفز عليه أحد الحشاشين، وكانوا طائفة دينية خرجت على طاعة صلاح الدين

بسكين فعاقته صفائح الحديد التي كان يرتديها فوق رأسه فمنعت الطعنة أن تصيبه بسوء غير أن المدية لفحت خده فخدشته فأمسك صلاح الدين بتلابيبه و جذبه من شعره، ووقع عليه وركبه وهنا أدر كه سيف الدين باز كرج أحد أتباع صلاح الدين فقضى عليه في الحال . فهجم حشاش آخر على صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلان وعده غير أن الحشاش أصاب الأمير في جبة . فلما رأى حشاش ثالث ما أصاب زميليه استأسد وانقض على صلاح الدين . غير أن الأمير علي بن أبي الغوارى صده وأمسكه من تحت إبطه فشل حركته وجذب يديه إلى الخلف حتى لا يمكنه من الضرب، فصاح الحشاش : « أقتلوني معه فقد قتلتي واذهب قوتي وأذهلني » فطعنه احدهم طعنة بسيفه . فخر على الأرض يتخبط في بركة من الدماء وهنا دخل إلى المعركة فدائي من الحشاشين غير أن السوقة لم تكد تلمحه حتى انقضوا عليه انقضاض الأسد على الفريسة وقتلوه شر قتلة .

أما صلاح الدين فانه دهش من هذه الحوادث التي تجرى أمام بصره غير أنه لم يفقد ثباته ولم تضعف سيطرته على أعصابه، وامتطى صهوة جواده، وجاء إلى سرادقه بصوت جهورى وزئير قوري – على حد تعبير أبي شامة والدم ينزف من خده ثم ضرب حول سرادقه برجا من الخشب وأبعد عن خدمته من لا يثق في ولائه .

واشتدت بليلة العرب لهذا الحادث وراجت بعض الشائعات عن مقتله غير انه كان يقطع دابرها بالظهور أمام الناس حتى يطمئنهم على

نفسه ويرد الثقة إلى نفوسهم وقد أرسل القاضي الفاضل إلى أخيه العادل في مصر كتابا يخبره فيه بنجاة صلاح الدين جاء فيه « السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف « الناصرى » حاصلة ولم ينله من الحشيش الملعون إلا خدش قطرة من قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها والركوب على رسمه وحصار « إعزاز » على حكمه وليس في الأمر بحمد الله – ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سرا »

وهكذا باءت هذه المؤامرة الدنيئة بالفشل الذريع واستحق مرتكبوها القصاص من غير شك ان أجمعت الأمة على عدله وإنصافه وتأييده وتعضيده ولم ينصرف عنه إلا كل طماع أشر يبحث عن مصلحته ويهدف إلى تحقيق نواياه الخبيثة .

وقد أثبتت الأيام أن صلاح الدين لم يتحول قيد شعرة عن الدفاع عن العالم الإسلامي والشرق العربي، ووقف كالطود الشامخ في وجه الفرنج، ولما ثار فردريك برباروسا إمبراطور النمسا ور تشرد قلب الأسد ملك بريطانيا و فيليب أغسطس ملك فرنسا، وأرسلوا كتائبهم وأساطيلهم لمحاربة صلاح الدين لم يتزعزع إيمانه بالنصر وظل يحصد بسيفه رؤوسهم حتى تم له النسر والفتح المبين .

الفصل الرابع

مؤامرات من العصر الحديث

لقيت الحملة الفرنسية عند نزولها أرض الكنانة مقاومة شعبية مستميتة، في الوجه البحري، والوجه القبلي . وهب الشعب المصري في وجه المحتلين يطالب بحقه في الحرية والسيادة فاشتعلت ثورة في القاهرة في ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ ولم ينقض على دخول الفرنسيين سوى ثلاثة أشهر، وتضافرت القوى جميعا لرد المغتصب الغاشم . ولم تلبث أن شبت ثورة أخرى، وأقيمت المتاريس وحفرت الخنادق، وغلقت أبواب المدينة، وتطوع الناس لحراستها ليل نهار، وظهرت الحركة بأجلى صورها وأروع مظاهرها في مدينة القاهرة وحي بولاق حيث أنشأ الناس مصنعا للبارود في الخرنفش، واقبل السيد المحروقي كبير التجار، والسيد عمر مكرم » نقيب الأشراف وسائر الأعيان والتجار على بذل الأموال وتحمل النفقات وأعداد المأكل والشارب، وكذلك جميع أهل مصر ومضى كل إنسان يجود بنفسه ويجمع ما يملكه، وأعان بعضهم بعضا « ودفعوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة » على حد تعبير المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي .

وتعاون الأقباط والمسلمون على رد قوى الظلم والطغيان، و قام أكابر القبط أمثال جرجس الجوهري وفليتوس، وملطي بنصيبهم من الجهاد والتبرع بالأموال .

وغادر نابليون مصر بعد واقعة أبي قير البرية في ش هر أغسطس عام ١٧٩٩ بعد أن عين كليبر قائدا للحملة في مكانه، وترك أمور الحكم في يده، فأخذ يحرض جنده على الحرب والقتال، ولا سيما بعد أن رفضت الحكومة البريطانية الموافقة على « اتفاقية العريش » فنادي في جنوده « أيها الجنود لا جواب شما عن هذه الوقاحة إلا النصر فهملوا إلى الحرب ..."

وبينما هو يؤيد سياسة العنف والإرهاب في البلاد إذ تقدم إليه رجل سوري في داره بحديقة الأزبكية وكان يتنزه مع أحد المهندسين الفرنسيين في البستان المجاور لداره، فلعنه بخنجره عدة طعنات فأرداه قتيلا. وكان كليبر يومئذ يبلغ السابعة والأربعين وقد نقلت أكثر المراجع الأوروبية تفصيل هذا الحادث من محاضر المحاكمة، كما تعرض لتفاصيله المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي في كتابه المعروف باسم « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

وجملة القول أن كليبر كان يسير مع كبير المهندسين الفرنسيين في منافس البستان الذي يحيط بداره في حديقة الأزبكية، وضربه بخنجر كان قد أعده في يده اليمنى، أربع ضربات متوالية، فشق بطنه، وسقط كليبر على الأرض صارخا فصاح رفيقه المهندس، وهم بمساعدته، ولكن الحلبى بادره بعدة ضربات بالخنجر، ولاذ بالفرار، فسمع العسكر القائمون خارج الباب. صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر طريحا على الأرض، ولا يزال فيه الرمق من الحياة، وقد ولى قاتله

الأدبار، فانزعجوا وضربوا طبلهم، وخرجوا مسرعين، وجروا في كل ناحية للبحث عن القاتل، وأجتمع رؤساؤهم، وأرسلوا الجنود إلى الحصون والقلاع، خشية من ثورة الشعب، وأقاموا المدافع وجهزوا القنابل، واستعدوا لساعة الصراع.

وشرع الجند الفرنسيون يبحثون عن القاتل حتى وجدود منزويا في البستان المجاور لبيت كليبر المعروف «بغيط مصباح في ذلك الحين، وكان جاثما بجوار جدار متهدمة، فألقوا القبض عليه، وعند سؤاله عرفوا أنه من أهل الإقليم الشمالي ومن مدينة حلب، واسمه سليمان، ولما سألوه عن محل إقامته أخبرهم .. أنه يأوي وببيت في الجامع الأزهر، ثم سألوه عن رفقائه ومعارفه فدلهم على أسمائهم، فأمر الفرنسيون بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ أحمد العريش القاضي، وأرغموهما على إحضار الذين ذكر سليمان الحلبي أسماءهم، بعد أن حجزتهم السلطات الفرنسية إلى منتصف الليل .

وقد تم القبض على ثلاثة منهم، ولم يجدوا الرابع، فأمرت السلطات الفرنسية بحبسهم في بيت دائم دام في الأزبكية، وشرعوا في محاكمتهم وسألوهم على انفراد ومجمعين .

وقد اثبت الطبيب الشرعي عند معاينة الجنة أن كليبر ضرب بسلاح مدبب، وانه أصيب بأربعة جروح. الأول منها تحب الثدي الأيمن، والجرح الثاني أسفل الجرح الأول والثالث في الذراع اليسرى ونفذ من

الناحيتين، والرابع في الخد الأيمن.

وأثبت الطبيب الشرعي أيضا أن المهندس "بروتاين" الذى كان يرافق كليبر مصاب بس نة جروح من السلاح ذاته الذي استخدم في قتل كليبر وان الجرح الأول في جانب الصدغ والماسى في عظمة الخنصر والثالث بين الضلوع اليسرى . والرابع في الشدق الأيسر والخامس في الصدر، والثالث سقط وصفه في عبارة المؤرخين، وكان ترتيبه الرابع في تاريخ الجبرتي.

ولما عقد المجلس العسكرى سا لمحاكمته – أولى جلساته سئل المتهم عن اسمه وسنه ومسكنه وصنعته فأجاب أنه يدي سليمان و من أهل الشام وأنه في الرابعة والعشرين وصنعته كاتب عربى ومسكنه في حلب، فسئل عن المدة التي قضاها في مصر فأجاب إنه وصل إليها منذ خمسة أشهر في قافلة : كأن شيخها يدعى سليمان يوريجى وسئل عن ملته فأجاب أنه على ملة محمد وأنه كان يسكن قبل ذلك ثلاث سنوات في مصر : ومالها في مكه والمدينة، وسئل هل يعرف الوزير الأعظم فأجاب أنه ابن عرب. ومثله لا يعرف الوزير الأعظم، ثم سئل عن معارفه في مصر فأجاب انه لا يعرف أحدا، وأكثر جلوسه في الجامع الأزهر . وان هناك أناسا كثيرين يعرفونه ويشهدون بحسن سلوكه، نم سئل هل ذهب في صباح الحادث إلى الجيزة فأجاب بالإيجاب وقال انه كان يريد أن يعمل كاتبا عند أحد الأشخاص غير أنه « قسم له نصيب » وسئل عن الناس الذين كتب لهم أمس فأجاب أن جميعهم سافروا ولا يعرف

أسماءهم، وعندئذ سأله المحقق كيف يعرف أنهم سافروا"، وفي الوقت ذاته لا يعرف أسماءهم، فأجاب أنه لا يستطيع أن يتذكر أسماءهم، فسأله عن آخر شخص كتب إليه، فأجاب أنه يسمى محمد مغربي السويسي و هو بائع عرقسوس وأنه ما كتب لأحد في الجيزة، ثم سألوه كيف قبضوا عليه في بستان كليبر فأجاب أنه لم يقبض عليه في الحديقة أنها قبض عليه عرضا في الطريق، وهنا طلب منه المحقق أن يقول الحق لأن الضباط الفرنسيين قبضوا عليه في الحديقة : فاعترف بذلك، وسئل عن سبب اختبائه فقال انه لم يكن مختبئا بل كان جالسا فيها لان الخيالة قد سدوا الطريق ولم يكن يستطيع أن يبرح المكان إلى المدينة، ولم يكن يحمل سكينا، ولا يعرف أن كان هناك سكين في الحديقة، فسئل لأي سبب كان يتبع كليبر منذ الصباح فأجاب أنه كان يريد أن يراه فحسب، فسئل هل يملك قطعة من القماش الأخضر نزعت من ثوبه فوجدت ملقاة في الحديقة فأجاب أنها ليست ملكا له، فسئل هل تحدث الأحد في الجيزة وأين بات ليلته ؟ فقال انه لم يتكلم مع أحد إلا لأجل شراء بعض الحاجات، وأنه نام في أحد جوامع الحديقة، وهنا أشار المحقق إلى الإصابات الظاهرة في رأسه . وقال أنها تثبت إدانته لأن المهندس « بروتاين » الذي كان يصاحب كليبر كان يحمل عصا وضربه فوق رأسه فنفى سليمان الحلبي هذا الكلام وقال أنه لم يجرح إلا ساعة القبض عليه .

وأثار هذا القول غضب المحقق، فأمر « سارى عسكر » بضربه، حتى طلب العفو فكف الجندي عن الضرب، وفلت وثاقه بعد أن كان

مقيدا، وأخذ يروي القصة من أولها، فاعترف بأنه لم يحضر إلى مصر إلا منذ واحد وثلاثين يوما، وانه حضر من غزة في ستة أيام على هجين، وكان في نيته قتل كليبر، وأنه أرسل من قبل (أغات الينكجرية) الذين طلبوا منه اغتيال كليبر، وانه لم يتصدر له أحد في مصر، وإنما سكن في الجامع الأزهر حيث التقى بالسيد محمد القزى، والسيد احمد الوالي والشيخ عبد الله الغزي، والسيد عبد القادر القزي فأطلعهم على مواده، وأخبرهم بنيته، ولكنهم أثاروا عليه بالعدول، واقترحوا عليه أن يطلب من المحرضين اختيار أحد سواه، وأنه قصد الي الجيزة، ثم ذهب الى دار كليبر بعد ذلك حيث التقى ببعض "النواتية" فسألهم عنه فاستفسروا عن السبب في ذلك، فابدى لهم رغبته في محادثته، فقالوا له أن كل ليلة ينزل إلى الحديقة وفي صباح الحارث وجد كليبر سائرا في المدينة ثم قصد إلي البستان فتبعه حتى اغتاله .

وتعددت محاكمة سليمان الحلبي، كلما ظهر شيء جديد في القضية أو صرح أحد الشهود ببعض الوقائع وأخذت ش هادة الجنود الفرنسيين الذين اتقوا القبض عليه، كما نودى على أصحاب الأسماء الذين ذكرهم الحلبي في أقواله، وكلما بدأ من أقوالهم ما يتطلب الرجوع إلي سليمان الحلبي عادوا إليه بالتهديد والمعين، والويل والثبور، وقال في التحقيق الثالث أنه حضر من غمزة مع قافلة تحمل صابونا وتبغا وان القافلة كانت خائفة من النزول في مصر فقصدت إلى ريف يسمى « الغيطة » من ناحية الألفية، حيث استأجر حمارا من أحد الفلاحين وحضر إلى مصر، ولكنه لا يعرف الفلاح صاحب الحمار، ثم أن أحمد

أغا وكبير أغوات حلب وكلوه في قتل كليبر وأوصوه أن يسكن في الجامع الأزهر، وألا يبوح بسره لأحد بل ينتهز الفرص لتنفيذ مؤامرته لأن هذه المؤامرة تتطلب السر والذكاء، ولكنه عند حضوره إلى مصر اجتمع بالمشايخ الأربعة الذين ذكرهم وقد حاولوا تغيير رابه، حتى كاشفهم بما في نفسه لأنهم من أبناء بلدته وقد اعترفا المحقق أنه يستطيع أن يعرف الخنجر الذي استخدمه، وان أحدا لم يعطه إياه، وإنما قصد بنفسه إلى سوق غزة، واشترى أول سلاح وجده، وقد منام الأغوات أن يساعدوه بكل ما يحتاج إليه الأمر، فسأله المحقق هل هو فقط الذي وكلت إليه هذه المهمة فقال : ألن كذلك لان الكلام حصل سرا بينه وبين الأغوات.

وتلى على المجلس العسكري تبليغ المهندس « بروتاين » الذي كان يصاحب كليبر وقت الحادث وجاء فيه أنه كان يتمشى تحت التكعيبة الكبيرة الموجودة في حديقة كليبر، وتطل على بركة الأزبكية فأبصر رجلا يلبس الملابس العثمانية وهو يخرج من بداية التكعيبة بجوار الساقية وكان في ذلك الوقت يبعد بعض الشيء عن كليبر لينادي أحد الغفراء وفجأة انتبه فوجد الرجل المذكور يضرب كليبر بالسكين عدة مرات فارتمى على الأرض وفي ذلك الوقت مع كليبر يصرخ، فهرع لإنقاذه ولكن الرجل ضربه بنفس السكين الذي اعتدى به على كليبر وهنا فقد المهندس وعيه غير أنه يعرف أنه مضت ست دقائق قبل أن يسعفه أحد ..

وقال أحد الجنود الطوبجية الملازمين لدار كليبر وأحد الذين اشتركوا في القبض عله ويدعي "روبرت مسكو" إنهم وجدوه في الحديقة

التي يوجد بها الحمامان الفرنسيان الملحقان بحديقة كليبر وانه كان مختبئا بين جدران الحديقة المتهدمة وان الحيطان المذكورة كانت ملطخة بالدماء في بعض النواحي، وان سليمان نفسه كان ملطخا بالدماء وإنهم وجدوا السكين ملقى في الحديقة بعد ساعة من ارتكاب الحادث.

ونودي على شيوخ الأزهر الأربعة : وسئلوا جملة من الأسئلة وكان سليمان قد أفضى إليهم بعزمه على قتل كليبر . وحاولوا أن يقدموا اسم الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر في تحريضه على ارتكاب الجريمة ولكنهم لم يجدوا الدليل القاطع على ذلك .

وهكذا تأكدت الأدلة والقرائن على نسبة التهمة إلى سليمان الحلبي فأصدر المجلس العسكري حكمه بأن تحرق يده اليمنى تم يجلس على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور، وهكذا يكون فوق تل العقارب المعروف بالنصارية [٢].

كما أدان المجلس العسكري الأربعة من مشايخ الأزهر، لأنهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بما سمعوه من سليمان أو عرفوه من عزمه على اغتيال كليبر .

وكان الشيخ عبد الله الغزي في الثلاثين من عمره والشيخ محمد

([٢]) هكذا في الجبرتي والمظنون أن هذا المكان بجوار القلعة

الغزي في الخامسة والعشرين، أما السيد احمد الوالي فقد ذكر أنه لا يعرفا سسنه، والشيخ عبد القادر الغزي حوكم غيابيا لأنه لاذ بالفرار.

وقد نفذ حكم الإعدام في المشايخ الثلاثة قبل إعدام سليمان و تحت س معه وبصره ٠٠ فأحرقت جثثهم ووضعت رؤوسهم على نبابيت ليطاف بها في شوارع المدينة .

وقد أغلق الجامع الأزهر بعد أسبوع من مقتل كليبر لأن القاتل كان قد قضى فيه فترة من الوقت قبل اقتراف فعلته، ولعله بث فكرة التذمر والثورة في نفوس الأزهريين الذين كانوا يستعدون لساعة الخلاص بصبر نافذ، ويتأهبون للانقضاض على الفرنسيين لإخراجهم من البلاد وقد ظل الأزهر مغلقا عاما كاملا، "وسمروا أبوابه من جميع الجهات" على حد تعبير الجبرتي إلى أن أعيد فتحه عقب خروج الفرنسيين من مصر أى في يونيو عام ١٨٠١ .

وليس من شك في أن الصورة التي تم فيها تنفيذ العقوبة كانت من البشاعة بمكان، والعقوبة انكى بالنسبة إلى المشايخ الأربعة . ولو أننا درسنا الظروف التي تمت فيها الجريمة لوجدناها ظروفا غير عادية . إنما هي ظروف سياسية عصيبة وكانت الحرب دائرة بين الفرنسيين المغتصبين، والأهالي الآمنين، وكانت المقاومة الشعبية متمثلة في كل مكان من شمال الدلتا إلي جنوب الصعيد، أضف إلى ذلك أن الفرنسيين استخدموا أبشع وسائل الإرهاب والتعذيب ضد الأهالي فقتلوا الشيوخ،

ورملوا النساء، ويتموا الأطفال، ونشروا الرعب في كل مكان، وليس صحيحا أن ياسين أغا حرضه بأربعين قرشا على قتل كليبر فهو مصري الشعور، أزهري الثقافة يحس بإحساس الوطنية بل القومية العربية ضد الظلم والطغيان، وليس هذا إلا توجيها لعاطفة موجودة أصلا .

الفهرس

الكتاب الأول

مقدمة ٧

الفصل الأول: مجتمع إسلام وسلام ١١

الفصل الثاني: الفتوحات الإسلامية في أوربا ١٩

الفصل الثالث: أثر ثقافة المجتمع العربي في أوربا ٣٨

الفصل الرابع: الصحافة العربية في أوروبا ودورها في خدمة المجتمع الغربي ٦٨

الكتاب الثاني

الفصل الأول: مؤامرات من صدر الإسلام ٩٠

الفصل الثاني: مؤامرات من العصرين الأموي والعباسى. ١٠٧

الفصل الثالث: مؤامرات من العصرين الفاطمي والأيوبي ١٢٩

الفصل الرابع: مؤامرات من العصر الحديث........... ١٤٦